

مشاهير العرب

٢

عمرو بن العاص فاتح مصر

بقلم

عبد السلام العشرى

طبعة السابعة



دار المعارف

ابن النابغة

لم تجتمع قريش هذه المرة في دار الندوة^(١) كما كانت تفعل ، إذا أرادت أن تُجمع على أمر من الأمور ، ولكنها اختارت بيت عظيم من عظمائها يسمى عبد الله بن جُددعان ، لأنها تداعت لتبحث أمر جماعة منها يعتزون بقوتهم وكثرتهم ، فيعتدون على الناس ، من مكة ومن غير مكة ، عالمين أن وراءهم سيوفاً مسنونة ، ورماحاً مشرعة ، تنصر أخاها ظالماً أو مظلوماً .

وكان العرب يُعظمون قريشاً ، حارسة البيت العتيق ، الذي بناه إبراهيم وإسماعيل ، وحامية الأصنام المنصوبة حول الكعبة ، تستقبل الوافدين لزيارتها ، والتوسل إليها ، واستشارتها في أخص أمورهم ، وأعقد مشكلاتهم ، حاملين لها من أطيب ما يملكون تقرباً وإرضاء . ولا ينقطع الناس صيفاً ولا شتاء عن مكة ، للحج أو للتجارة في تلك المدينة الكبيرة المتوسطة بين الشام واليمن ، والمتحكمة في تجارة المشرق والمغرب ، وفي وفودهم على مكة خيرٌ عميم ، يُصبر أهلها على احتمال حرها الشديد ، ومكانها النائي عن الزرع والماء ، إلا عيناً نابعة في وسطها قريباً من الكعبة تسمى زمزم ، تسقى مكة ، وينزل حولها المسافرون فيتزوّدون من مائها ، كما يتزوّدون من عَوْن الآلهة القوية القادرة .

(١) دار بناها قصي بن كلاب جد الرسول ، صل الله عليه وسلم ، حين جعلت له قريش أمرها ، وصارت مكاناً لاجتماعهم للخير والشر .

وضمت الدار كثيراً من بَطُون قريش إلا بنى سهم . فلم توجه إليهم الدعوة ، لأن هذا الاجتماع قد أثاره عدوان كبير منهم ، وقريش لا يسرها أن يعتدى أحد على الوافدين إلى مكة ، أو القاصدين إلى البيت ، لأن حياتهم أكثر ما تقوم على التجارة ، التى يسرون بها إلى الشمال حتى الشام ، وإلى الجنوب حتى اليمن . ويخترقون بها البحر حتى الحبشة ، ولا يودون أن يكون لأحد عندهم ثأر يطلبهم به ، إذا ما بعدوا عن ديارهم ، ولا يحبون أن يمتنع الناس عن البيت . ولا أن يفقدوا منزلتهم فى الأعين كجماعة متصلين بالآلهة التى لا تظلم مثقال ذرة . ولا يودون أن ينتقص أحد هذا الاعتقاد ، الذى رسخ فى قلوب العرب منذ بعيد ، وأفاد القرشيين حينما حلوا وحيثما رحلوا . فاجتمعوا فى تلك الليلة لينصروا المظلوم ، ويردوا الحقوق إلى أهلها . ويؤكدوا للعرب ما يعتقدون ، من انطباعهم على صفات الآلهة التى يخدمونها ويسرون بأمرها وهداها .

كانت شمس هذا اليوم تشرق ، وقريش تسرع إلى الحرم ، على أصوات استغاثة حزينة ، يرسلها رجل من قبيلة يمنية تسمى « زَيْد » كان قد أقبل إلى مكة لزيارة البيت ، وحمل معه بعض المتاجر التى تنفق فى سوقها . فتقدم إليه كبير من تجارها ، يسمى العاص بن وائل ، واشترى منه بضاعته ولم يعطه الثمن . وأخذ الزبيدى يطالبه حتى يشس منه ، فصعد مكاناً مرتفعاً قريباً من البيت ، وصاح ينادى من ينصفه ويرد إليه حقه فأسرعوا إليه . ولكنهم وجدوا أنفسهم هذه المرة أمام رجل عنيد . فبادروا

إلى التفكير في عمل حاسم يقضون به على هذه المظالم .

وانفقوا في هذا الاجتماع على تكوين حليف منهم يكون بدأ واحدة على المعتدين من بني سهم ، وغير بني سهم ، وأقسموا على الوفاء بما تعاهدوا عليه ، ثم خرجوا من دار ابن جدعان إلى الكعبة ، ليشهدوا الآلهة على هذا الاتفاق الذي يرضيها ، وأخذوا يطوفون بالكعبة مسرورين بما عملوا من أمر عظيم .

وبينا كان القوم في طوافهم جادين في تأكيد عهدهم ، اعترضهم غلام تناهز سنة الرابعة عشرة ، أدعج العينين ، ربعة ، كبير الهامة ، ينطق وجهه بالإدراك والبصر ، ووقف ينظر إلى ابن جدعان في ثبات وقوة ، فاستوقفت نظرته الرجل العظيم ، الذي بهابه الصغير ، ويوقره الكبير ، وجعل يسرح بصره في الرجل ، كما ينظر الند الغاضب إلى الند ، ثم قال في نبرات حادة حازمة :

— وأين كبير بني سهم يا ابن جدعان ؟ !

فابتسم الرجل العظيم ، ومد بصره إلى الغلام ، ثم قال في رفق :

— تركناه يمطل الناس حقوقهم يا عمرو ! أما سمعت الزبيدي وهو يستغيث من فوق جبل أبي قبيس ^(١) ؟ ! ولكننا لم نتعرض لأبيك بشر ، وإنما تحالفنا على الظالمين .

— ولكنكم أجبتم الزبيدي دون أن تسألوا العاص !

— ومن الذي يسأل أباك يا عمرو ؟ ! إنه يعتز بنفسه كأن الدنيا لم تخلق إلا له وحده ، لا يريد أن يسمع إلا رأيه هو ، ولأن يتحدث أحد في أمر أبرمه !

(١) جبل مشرف على مكة من الشرق .

— وكثيراً ما أصاب يا ابن جدعان !

— لا نمارى يا عمرو فى ذكاء أبيك ، وقوة بصره ، ولكن الظلم لا يفيدنا ولا يفيده ، إنه تاجر كبير ، والتجار أول الناس بالأمانة ، والصدق ، واكتساب القلوب ، ثم نحن بعد ذلك تجار منتقلون فى كل البقاع ، أيرضيك أن تتأثر قبيلة مثل زبيد لرجلها من تجار قريش ، إذا مرو ببلادهم ؟ أيرضيك أن يمتنع العرب عن الحج ، وزيارة البيت ؟ إن أباك ظالم يا عمرو ولا شك !

وتجمع الطائفون حول الغلام ، دهشين من صبر ابن جدعان على حديثه ، زائدى الدهشة من لباقة الغلام ودقة تعبيره ، واعتزازه بنفسه ، وألقى الغلام نظرة على الجمع الملتفين حوله ، ثم قال فى نبرات قوية :

— ما كان ينبغي أن تجندوا قريشاً هذا التجنيد ، قبل أن تتبينوا الحقيقة . ولو فرضنا يا ابن جدعان أن العاص ظالم ، فقد كان الأجدر أن يؤخذ بالرفق . فإن الرفق كثيراً ما يحل المشاكل التى تعجز عنها الأسنة . وعلى كُـلِّ ، فقد خسرتم بنى سهم ، وهى شئ لا يستهان به .

وأخذت كلمات الغلام طريقها إلى قلوب القوم ، وأثارت غضبهم ، وود بعضهم لو رفع الغلام ، ثم دق رأسه الكبير بحجارة الكعبة فحطمه ، لكنه يعرف أن الحرم لا يُقتَرَف فيه الإثم ، ويعلم كذلك أن الغلام ابن كبير بنى سهم ، وليس بنو سهم بالشئ اليسير .

وقرأ الغلام ما فى وجوه القوم من العيظ الشديد ، وشمل القوم بنظرة

عاجلة ، ثم هز رأسه أهزات خفيفة ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة ، ثم قال :

— حلف الفضول ^(١) ضد بنى سهم ! إنه يفيد الغرباء ، ويمزق الأقرباء ، وسرّون عاقبة الفرقة ونهاية الخلاف .

ثم لوى وجهه ، وحاول ابن جدعان أن يمسك به ، فانفلت من يده لاوياً عنقه ، ثم سار مستقيماً القائمة ، في خطواته زهو وخيلاء .

وعقدت الدهشة أرجل القوم في أمكتهم ، فجلسوا بجانب الكعبة ، وأرسلوا أفكارهم في مطارح كثيرة ، وساد صمت طويل ، قطعه بعضهم قائلاً : ليس هذا بغريب من ابن النابغة !

فترددت بين الجماعة أصوات مختلطة ممثلة بالدهشة ، ثم ظهر منها صوت قوى يردد في حسرة :

— كنت أود أن يكون لى ولد مثل هذا الغلام ، ولو كانت أمه مثل النابغة !

وانفتح باب الحديث ، وولج منه القوم إلى نجباء العرب ، فاختار كل منهم بعض مشاهير قومه ، وأخذ يتحدث عن ذكائهم من الصغر إلى الكبر ، وكان العرب يحفظون أنسابهم ، ويعرفون أجدادهم ، حتى يستطيع الواحد منهم أن يعد آباءه إلى الثلاثين ، أو الأربعين ، ليكون ذلك عوناً

(١) كان نفيقال لهم : الفضل بن الحارث الجرهمي ، والفضيل بن وداعة ، والفضل ابن فضالة قد اجتمعوا فتحالفوا ألا يقرأوا بمكة ظالماً لما عظم الله من حقها ، ثم ذهب الزمن بذلك الخلف ولم يبق في قريش إلا اسمه ، فحين اجتمعوا في هذه المرة رأوا أن يعيدوا ذلك الخلف .

له ، يوم يجلس للفخر ، والتباهى بأنه فرع من جذوع طيبة ، ممتدة الجذور .
وطال الحديث عن عظماء الرجال وعن المنجيين والمنجيات ، والكثير
منهم في حمة ، يتساءلون كيف تنجب سبيّة من السبايا مثل هذا
الغلام ؟ ! وهل يُعقل أن عبدة يفوق ولدها أبناء الخزائر ؟ !
وكان بعضهم قد كبر عنده الظن ، بأن العاص هو الذي أرسل ابنه
إليهم ، وأن الغلام قد عاد إليه ، ليطلعه على ما رأى وما سمع ، وقد روا
أن يكون بنوسهم قد اجتمعوا في ناديتهم ، يدبرون للرد على هذا الحلف ،
فراى بعض هؤلاء المتحالفين ، أن يذهب إلى منازل بني سهم ، ليرا
خبرهم ونحو ذلك الغلام .

بنو سهم

عاد عمرو إلى قومه ، فوجدهم مجتمعين في دار أبيه الفسيحة ، ولم يجد
في وجوههم ما ينبئ عن غضبهم لذلك الحلف ، الذي يكاد ينطق بأنه
موجه ضدهم ، وضد رئيسهم العاص بن وائل ، بل وجدهم في مرح وبشر ،
قد شربوا حتى ظهرت عليهم آثار الشراب ، وأرهفوا أسماعهم إلى مغنية
ذات صوت رخيم ، ترجع الغناء ، فتحرك أوتار قلوبهم ، وبصيحون
صيحات تملأ أرجاء المكان ، وتندفع خارجه ، وقد جلس العاص في
صدر الجماعة على بساط ثمين بديع النقش جميل التصوير ، وعليه حلة
من الحرير الخالص ، صنعت له من قماش اليمن المزركش ، وقد عبى

المكان برائحة الطيب المتصاعدة من مجمرة أمام المغنية ، ترسل دخانها في السماء ، متموجاً تارة ، ومعتدلاً أخرى ، ومائلاً مرة إلى أحد الجالسين الذين يحركون أكفهم في وسطه ليجذبوه إليهم ، ثم يسحبونه بأنوفهم سحباً طويلاً .

وما كاد عمرو يطل على الجمع ، حتى دعاه أبوه في نبرات حازمة ، قد فارقتة ابتسامته التي كان يشجع بها الفتاة على الغناء ، فأقبل الغلام ووقف أمامه في أدب فابتدره قائلاً :

« لماذا راجعت ابن جدعان عند البيت ؟ ! لقد فتحت لقريش باب القيل والقال ، ومهدت لهم ظناً كاذباً أن بنى سهم يقدرون لخلفهم وزناً أتظن أحداً منهم يقف لأحد منا إذا أراد أمراً ؟ أتظن آباءك قد غفلوا عما يكتنه القوم لهم من حسد وبغضاء ؟ ! لقد أخطأت يا عمرو ! »

— ما ظننت أنى أخطأت يا أبى ! رأيت القوم يطوفون بالبيت ، في غمرة من الفرح ، وكأنهم هزموا كسرى ملك الفرس ، أو قيصر ملك الروم ، فأحببت أن أبين لهم ما يجره هذا الخلف على قريش .

— أنسيت يا عمرو أن لبنى أبليك الحكومة ، لأن قريشاً وغير قريش ، قد عرفوا ما يمتازون به من قوة الحجة ، والمقدرة على التوسط بين الخصوم حتى يتراضوا ؟ ! أنسيت يا عمرو أن مجدنا يشير علينا عداوة أبناء عمومتنا ، لأن كلاً منهم يود أن يقصد العرب بابه ؟ ! ثم لنا دونهم قسم كبير من السلطان ، كفيل بأن يشير علينا القلوب ، أتدري ما ذلك الأمر يا عمرو ؟

أوقاف الآلهة يا أبى .

— نعم يا عمرو ، لقد جعلوها لنا باختيارهم ، لأن بنى سهم خير من يعيد أعمال المال وحفظه واستثماره . ألا يشير ذلك غضب طالبي العظمة ومحبي الزعامة ؟ ! ولكن سيوف بنى سهم لامية . ورماحهم مسنونة . فليتحالفوا ما شاءوا ، فلن يستطيعوا أن ينالوا من سهمى قلامة ظفر .

وكان القوم ينقصون إلى الحديث في سرور بالغ . لأن زعيمهم قد شئى ما في نفوسهم . وأخذ بعضهم يتحدث موقف عمرو من ابن جدعان ، وأشار العاص للمغنية فاستأنفت الغناء . كما أشار إلى عمرو بالجلوس ، لأنه سيفضى إليه بشئ يحبه ، وعاد القوم إلى مرحهم . وعادت الجارية ترجع أعذب الغناء . فاستخفهم الطرب ، وأخذوا يتشدون الأشعار الحماسية ، ويتوعدون من تحدته نفسه بالاعتداء على عبد من عبيد بنى سهم . فضلا عن الأحرار والرؤساء .

وبينما هم غارقون في هذا الطرب . ناسين ما حولهم من متاعب الحياة ، أقبل بعض الخدم مسرعين . ينبشون العاص بأن قافلة اليمن قد وصلت . وأن أفرادها جميعاً بخير ، قد أقبلوا بما لا يحصى من البضائع النادرة . فانفرط عقد المجلس . وأسرع السمار لاستقبال القافلة ، وبنى العاص وابنه ، وأذا الغلام مرهفتان لما سيتحدث به أبوه .

ولم يتحدث الرجل إلى ابنه بما وعده ، لأن الخدم قد عادوا يحملون البضائع الكثيرة . وعلا الضجيج في دار العاص . يتنادى فيه الخدم بإمكانة البضاعة وترتيبها والحرص على الثمين منها . وقام العاص وابنه

بنظران ما عادت به القافلة ، ثم رجع إلى مجلسه ، واستمع إلى أتباعه وهم يقفونه على كل صغيرة وكبيرة من أمر الرحلة ، يعاون بعضهم بعضاً ، ويتم بعضهم ما نسي الآخرون ، وهو منصت للحديث ، واع كل ما يقال ، ثم ابتسم سروراً ، وبشرهم بأن رحلة الشمال ستكون أوفر حظاً من رحلة الجنوب ، لأن ما حملوه من السلع النادرة ، له أسواق رائجة في بلاد الشام التي سيرحلون إليها بعد ذلك .

وكان لتجارة المعاص مكان ممتاز بين القوافل الكبيرة التي تخرج من مكة ، يصحبها هو أحياناً ، ويرسل معها أحد أتباعه أحياناً ، وقد عزم في هذه المرة أن يصحبها إلى الشام أحد بنيه ليدربه على التجارة ، ومزاولة ما يزاوله كبراء قريش ، من هذه المهنة ذات الربح الوفير .

وكان عمرو يتمنى أن يأذن له أبوه في السفر ، حتى يرى البلاد التي يسمع عن عجائبها وغرائبها ، ويتخيلها في صورته ، وأخذت أفكاره تتطاير حوله ، وأقواها أن والده قد استمهل ، لأنه سيختاره لرحلة الشام . ولم تخب فراصة عمرو ، فأدناه أبوه ، وسأله عما سمعه من أفواه التجار ، فأعاده كله كأنه قد نقشه في قلبه ، ثم سأله عما يراه من صواب في تصرفهم ، أو من خطأ كان عليهم أن يتيقظوا له ، فأجاب عمرو في سداد كأنه يقرأ أفكار أبيه ، وأبوه يبتسم لإصابته ما في نفسه ، ثم مد يده وربّت على كتف ابنه ، وقال له في عطف ورفق : « ستصحب القافلة إلى الشام يا عمرو في رحلة الصيف ، فخذ أهبتك ، واستعد للرحيل » .

المحادث الأعظم

أصبحت مكة ذات يوم على غير ما تصبح في جميع الأيام ،
 قد غمرت شمسها الكعبة وما حولها من الأصنام بأشعة محرقة ، وخصت
 كبيرها هبل بقسط وافر ، فظهر عقيقه أحمر قانياً ، كأن الدم يجري في
 جميع أوصاله ، وجلس جماعة من القرشيين في ظل البيت يضحكون
 كلما مرواخذ من بنى عبد المطلب ، وينادون كل سائر ، يسألونه عن
 محمد بن عبد الله ، الذي يدعى أنه رسول الله إلى الناس كافة ، وأن ربه
 قد أنزل عليه قرآناً ، يتحدى به جميع الفصحاء ، ويؤكد عجزهم عن
 مثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فيقهقه السائر ويقهقهون معه ،
 ويقف بعض المارة ليدكرهم بأن محمداً ليس أول متنبئ في الجزيرة ،
 وأن عليهم تركه حتى يظهر كذبه وبهتانه .

ولم يظهر كذب محمد وبهتانه ، ووجد القرشيون أن الأمر جد ،
 وأن محمداً ماض في دعوته ، وفكروا في أثر ذلك على تجارتهم ، ومنزلتهم
 بين العرب ، ورأوا أن دعوة محمد قد أصبحت حديث الناس وموضع
 تفكيرهم ، وأن من القرشيين من استهوته هذه الدعوة ، فدخل في هذا
 الدين ، وأظهر بعضهم إسلامه معتمداً على منعة قومه ، وأخفى بعضهم
 إيمانه خوفاً من قريش ، ووجد المشركون أن الانتظار قد يضرهم ،

ويساعد على انتشار الإسلام ، فשמروا لمحمد وأتباعه ، يعذبون من استطاعوا ، ويتعهدون من يلمحون عليه التفكير في الإسلام ، بأخذة تباعد بينه وبين الحياة . وكان عمرو قد بلغ الرابعة والثلاثين وأصبح من الفتيان الذين تقدرهم مكة ، قد عرف البلاد المحيطة بالجزيرة ، ورحل إلى الشام ومصر والحبشة ، وعرفته مكة تياهاً بذكائه ، وسرعة بديهته ، وقدرته على حل المشاكل العصية .

واشترك عمرو وأبوه في جهاد هذا الدين ، واجتمعوا مع المتأمرين للقضاء عليه ، وازدادت موجة التعذيب والتنكيل بالمسلمين ، فقرروا ترك مكة إلى بلاد يمكن لهم فيها أن يعبدوا الله ، حتى يحكم بينهم وبين هؤلاء القساة الجبارين . وأشار عليهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة ، لأن ملكها النجاشي ذو دين سماوى ، يعلم مقدار الاتصال بالله ، ويعرف بشارة عيسى بمحمد فشدوا رحالهم ، واستعدوا لمفارقة مكة .

وفي جناح الليل ، تسلل هؤلاء المهاجرون بدينهم ، وركبوا البحر حتى دخلوا بلاد النجاشي ، فوجدوا في كنفه ترحيباً وسعة ، وعرف من بقى من المسلمين بأن الله يُعبد هناك في أمن ، كما عرف ذلك المشركون ، وقدروا خطر هذه الهجرة عليهم ، وخافوا أن يفر أتباع محمد كلهم إلى الحبشة وغيرها ، فيكبر سلطانهم ، وتشتد قوتهم ، ثم يهاجموا مكة ، ويردوا جزاء العدوان أضعافاً مضاعفة ، فقرروا منع الهجرة إلى الحبشة ، كما قرروا أن يعيدوا أولئك المهاجرين إلى مكة .

واجتمعت قريش وتبادلت الرؤى ، وكدّ كل منهم ذهنه ، واستعان

بكل شيطان ، ليجد وسيلة يرد بها هذه الشعلة التي اخترقت البحر .
وتطلعت الأنظار إلى دهاء ، يستطيع أن يقنع النجاشي بطرد المسلمين من
بلادهم ، واتجهت العيون كلها إلى رجل منهم يجيد فن المكر والدهاء ، ثم
هتفوا جميعاً :

— ليس لها إلا صديق النجاشي ! ليس لها إلا عمرو !

ونهض الرؤساء ليعدوا ما طلبه عمرو من الهدايا الثمينة للنجاشي ورجاله ،
ولم يمحض غير قليل ، حتى كان عمرو في وسط البحر ، باسم القلب ، يدبر
الخطوة في ذهنه ، ثم يشرق وجهه رضاً وثقة ، ويتخيل نفسه عائداً
من الحبشة يسوق أولئك المهاجرين ، وقريش تستقبله خارج مكة ،
كما يستقبل ملوك الروم الذين رأهم في الشام وهم يدخلون المدن ، ويهرع
الناس إليهم ينثرون الورد عليهم ، ويوزعون في الآفاق هتافات الإجلال
والتقدير لهم ، وأخذت كلمات قريش تترد في سمعه وهم يودعونه واثقين
هاتفين : سيعيدهم عمرو ! سيعيدهم عمرو .

قوة الحق

حمل عمرو هداياه ، واتجه إلى قصر النجاشي الذي يعرفه ويحبه ،
وأخذ ما أعده للملك ، وترك البقية للحاشية التي وعدته المؤازرة على بلوغ
مقصده ، ثم استأذن على الملك وحياه ، فأدناه النجاشي وأسرع عمرو
يقدم الهدايا ، والمملك يعجب بها ، وينعكس إعجابه على حاشيته ،
فتفترغواهم ، حتى اشتد سرور النجاشي ، وردد شكر عمرو على عظم

المهدية ، سو حسن الاختيار ، ثم سأله عن قومه ، وعن الرسول الذى بعث منهم ، فأسرع ينسج أول شبكة من شباكه حول النجاشى ، معتقداً أنه سوف لا يتم خيوطها حتى بأمر الملك بتسليمه أولئك المهاجرين ، مربوطين فى قرن .

بل قوى الزعم فى نفسه أنه سوف لا يسلمهم أحياء بل سيقتلهم ثم يدفع إليه جثثهم ليعود بها إلى قريش ، فعزم على أن يرجوه تسليمهم أحياء حتى يتمتع هو وقريش برؤيتهم أذلة ناكسى الرؤوس . قبل قتلهم ، وأخذ يخبر النجاشى أن يعمل له نخية قريش وتقديرها لعطفه وعدله ومعونته لرجالها ، واعتقدها أنه الملك العادل الذى لا يبق الظالمين فى بلاده .

— نعم يا عمرو . لا مجرم ولا ظالم فى بلادى . هل اعتدى أحد عليكم ؟ !

— نعم يا مولاي !

— لا أظن يا عمرو . فإن الأحباش يخرمون الناس ، ولا يعتدون على أحد .

— ليس من الأحباش يا مولاي !

— وما شأنى بغير الأحباش يا عمرو ؟ !

— الظالمون المجرمون فى بلادك يا مولاي !

— فى بلادى ؟ ! لا أظن فى بلادى ظالماً يا عمرو ! إننا لا نبقى

الظالمين بيننا . أعرفت أن فى بلاد الحبشة ظالمين ؟ ! فى أية زيارة يا عمرو ؟ !

— ليسوا أحباشاً يا مولاي ، ولكنهم من العرب .

— من العرب ؟ !

— من أنصار الرسول الذى تسأل عنه ، وعن دعوته يا مولاي .

— بلحشوا إلينا ؟ !

— نعم يا مولاي ، ووجدوا فى بلادك الأمن فأقاموا ، وكر آخرون فى اللحاق بهم .

— شكراً لله على أن بلادى ملجأ للخائفين المظلومين !

— بل ظالمون يا مولاي !

— أيقر الظالمون يا عمرو ؟ ! لا أظن أن الظالم يفر ! إني لا أراك اليوم فى عقلك القوى ، ولا فى فصاحتك وذهنك الذى تقابلنى به كل مرة !

— هم الظالمون يا مولاي ، قد تركوا دين آبائهم وأجدادهم ، واتبعوا ذلك الذى يدعى أنه رسول الله إلى الناس كافة !

— إلى أى شئ يدعو يا عمرو ؟

— يدعو يا مولاي إلى نبذ الأصنام ، وعبادة إله يصفه بأنه واحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولا يشابهه أحد ، لقد طلع علينا ببدعة غريبة يا مولاي ، فناهضه العقلاء والأغنياء ، واتبعه الفقراء والضعفاء ، إنهم يسيئون الآلهة يا مولاي فهم ظالمون .

— أنتحجرون على العقول يا عمرو ؟ ! أليس لكل امرئ أن يتجه كما يشاء ، حتى يهتدى إلى الحق ؟ ! وماذا يهمكم من اتباع هؤلاء لهذا الرسول ؟ ! إن الإنسان يميل بطبعه إلى ما ينفعه ، ويتعد عما يضره ، فلماذا آذيتموهم ، حتى أجبرتموهم على الفرار من بلادكم ؟ !

— إنها سياسة مرسومة يا مولاي ، للاستيلاء على السلطان والزعامة في بلاد العرب وغيرها ، فذلك الدين يبشر تابعيه بأنهم سيملكون الأرض ، وسيفتحون بلاد فارس وبلاد الروم ، وربما

وسكت عمرو قليلا ، فابتسم النجاشي وأتم عبارة عمرو قائلا :

— وربما بلاد الحبشة ! أتريد ذلك يا عمرو ؟

— لقد استحييت أن أقولها يا مولاي ، فهم يزعمون أن دينهم سوف يسود الأرض ، إنه قد أفسد علينا عبيدنا ، وجعل يغذيههم بآرائه الثائرة ، حتى شعر العبيد أنهم مثلنا ، وأصبحوا يرددون في كل وقت أن الناس إخوة ، وأنهم سواسية كأسنان المشط ، أتوافق يا مولاي على أن عبيدك هم أبناء أبيك ، وأنتك خلقت معهم من ذكر وأُنثى ؟ !

— نعم يا عمرو ، كلنا لآدم ، ألا تعرف ذلك ؟ ! إن رسولكم يقول الحق يا عمرو !

— ليس رسولنا يا مولاي ، بل رسول هؤلاء الفارين الذين جثت من أجلهم ، وأرجو أن يأذن مولاي بهم ، فإن قريشاً في انتظارهم ، وستحمد للنجاشي العظيم هذا الفضل ، سلمهم إلى يا مولاي .

— أسلمك إياهم يا عمرو ؟ لا يا عمرو ، ولكني سأرسل إليهم وأستمع إلى حجتهم ، وتكون أنت أمامهم .

— أمامهم ؟ !

— نعم يا عمرو ، فلماذا أقنعتهم ، وإما أقنعوك ، أتأبى ذلك يا عمر ؟ !

— لا . . . لا يا مولاي !

وأشار النجاشي بإحضار هؤلاء الفارين بدينهم ، وكانا المهاجرون قد علموا بمجيء عمرو ، وارتابوا في أن يكون قد جاء من أجلهم ، فتجمعوا عند قصر النجاشي ، وطلبوا الإذن بالدخول عليه حتى يحبطوا خطة عمرو ، وكان عمرو يقدر ذلك ، فاتخذ للأمر عدته ، وأوصى القائمين على أمر القصر بالآلا يسمحوا لهم بالدخول حتى ينتهي من أمره ، فظل المسلمون أمام القصر ، حتى وجدوا جنود الملك يبحثون عن مكانهم ، فتقدموا إليهم ، وطلب رئيس الجند منهم أن يتدبوا بعضهم لمقابلة الملك .

كان عمرو قلقاً بعد ما حاور النجاشي في أمر المهاجرين ، وأحس عطفه عليهم . وبدا اضطرابه حينما دخل جعفر بن أبي طالب ^(١) ، ومعه المسلمون في ثبات وقوة . وحيا جعفر النجاشي قائلاً : « السلام عليك أيها الملك ورحمة الله . فانتهاز عمرو هذه الفرصة ، وصاح وهو ينظر إلى جعفر وإلى المسلمين في سخرية . كأنه قد وجد منهم مقتلاً :

— أرايت يا مولاي هؤلاء المتكبرين ، الذين لا يسجدون للنجاشي العظيم ؟ ! أياي مخلوق أن يسجد للنجاشي ويخضع لعزته ؟ !

فأسرع جعفر قائلاً : « النجاشي أكبر من أن نخدعه يا عمرو ، فنحن لا نسجد إلا لله الذي يخرج الحبيب في السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، تحييتنا السلام ، تحية أهل الجنة يوم يدخلها

(١) ابن عم الرسول صل الله عليه وسلم ، كان من السابقين إلى الإسلام هو وامرته أسماء بنت عميس ، وهاجرا معا إلى الحبشة ، وجاهدا في الله حق جهاده ، واستشهدا في غزوة تبوك .

المؤمنون بما عملوا من خير .

ونظر عمرو إلى النجاشي فوجده يهز رأسه مستحسناً كلام جعفر ،
ثم سأله عن دينهم ورسولهم فقال جعفر : « أيها الملك ! كنا أهل جاهلية ،
نعبد الأصنام ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ، وبأكل القوى منا الضعيف ،
حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته ، فدعانا
لتوحيد الله وألا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع ما كنا نعبد من الأصنام ،
وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، ونهانا عن
الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، فأمتنا به وصدقناه ، وحرمتنا ما حرم
علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فاعتدى علينا قومنا وعذبونا ، ليردونا إلى
عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا
إلى بلادك ، واخترناك دون سواك ، ورجونا ألا نظلم عندك .

تأثر النجاشي بالحديث جعفر ، وطلب منه أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء
به الرسول ، فقرأ عليه جعفر بعضاً من القرآن ، فزاده تأثراً وخشوعاً ،
وصاح في قوة :

— إن هذا والذي جاء به عيسى ، يخرج من مشكاة واحدة ، والله
لن أسلم هؤلاء أبداً ، أقيموا أيها المسلمون في بلادى آمنين ، وأنت
يا عمرو ، انطلق إلى قومك ، وخذ معك هداياك حتى تكون قد رجعت
بشيء كما أملت .

وخرج المسلمون رافعي الرؤوس ، وخرج خلفهم عمرو يتعثر ، وقد
ضافت الدنيا في عينيه ، لا يدري كيف يعود إلى مكة ، ولا كيف يقابل

سخرية قريش ، وأخذ يدفع نفسه حتى ركب البحر ، وكانت قريش ترتقب عودته وتعد لها العدة ، فلما وصل لم يجدوه مرفوع الرأس باسم الشجر كما ودّعوه ، وتلفتوا حوله وهم يصيحون : « ماذا وراءك يا عمر ؟ ! » . ولم يكن خلفه إلا ابن أبي ربيعة الذي صاحبه ، ومدوا أبصارهم في الطريق فلم يجدوا أحداً ، فتأكدوا أن عمرأ قد أخفق ، وأن الإسلام قد قهره في تلك البلاد ، وغشى وجوههم حزن عميق ، وعادوا إلى منازلهم وقد عزموا على أمر يغطي هذه الهزيمة ، ويضع حداً لهذه الدعوة ، ثم اجتمعوا يفكرون ويدبرون .

جهاد يائس

جد المشركون في إيذاء الرسول ، وصدد الناس عن دينه ، وكان عمرو وأبوه وقومه ، يشتركون فيما يصنعه المشركون ، لكن عمرأ أصبح كثير التفكير في هذه الدعوة التي تشق طريقها بقوة نادرة .

وذات يوم كشف المشركون أن الإسلام قد اخترق الصحارى ، وقفز من فوق الجبال العالية ، وسار مع ركب أهل يثرب ^(١) الذين جاءوا للحج ، وسمعوا آيات القرآن ، واشتد غيظهم لهذا الفتح الجديد ، ورأوا أن الإسلام سيفمر الآفاق ، ثم يعود إلى مكة . فيحطم الأصنام ، ويزيل

(١) سميت هذه الهجرة مدينة الرسول .

الوثنية التي يعتزون بها ويحافظون عليها ، فاجتمعوا ليضعوا الخطة لنهاية حاسمة لمحمد ودين محمد ، وانتهى بهم الرأى إلى قتله .

وفي تلك الليلة التي تواعد فيها المشركون على إطفاء نور الله ، أمير الرسول بالهجرة ، وأنقذه الله من مخالب الكفر ، ففر من بينهم بدين الله ، وانطلق المشركون يبحثون عنه ، وعن رفيقه أبي بكر ، وينقبون في كل مكان ، ومن بينهم عمرو بن العاص ، يدبر مع المدبرين ، ويبحث مع الباحثين ، لكنه كان يفكر ، ويرسل فكره بعيداً حيث سار الرسول ، ثم يعود به ، حيث رجال مكة يجتمعون ، ويدبرون ، ويوازن بين قوة محمد ، وقوة قريش ، ثم ينتهى إلى إقناع نفسه بالصبر والتأني ، حتى ينجلي الأمر .

وصارت مكة والمدينة ، مقراً لعداوة لا يفصل فيها إلا الدماء ، وقلوب القرشيين ترجف كلما علموا بانتشار الإسلام ، وازدياد قوة محمد وتعلق أنصاره به ، ولا سيما أن المدينة التي هاجر إليها ، تتحكم في الطريق بين مكة والشام ، حيث تتردد قوافل قريش . ولم يبعد ظنهم ، فقد عبأ المسلمون قوتهم على قتلها ، والتحموا بالمشركين في هذا الطريق ، عند آبار بدر^(١) في معركة حامية ، انتصر فيها جند الله وانهزم أعداء الله ، وعادت فلول المشركين تجر ذبول الخيبة ، بعد أن خلفت عظماءها في بطن الصحراء ، قد مزقت أكبادهم وفصلت رؤوسهم ، وخلفت معها عدتهم

(١) آبار في طريق القوافل ، بين مكة والمدينة ، بينها وبين ساحل البحر مسيرة ليلة ، وعندها وقعت غزوة بدر في العام الثاني من الهجرة .

وعنادهم غنيمة للمسلمين .

ولم يشهد عمرو هذه النكبة الماحقة ، التي حلت بقريش ، وبلغه مصرع القوم ، ورأى أخاه هشاماً قد أسلم قبله ، وهو أصغر منه سنّاً ، ونظر إلى من في المدينة من أهل مكة ، وحلق خياله يرسم مستقبلهم المشرق وكاد أن ينتهي إلى قصد المدينة واعتناق الإسلام ، ولكنه أعاد النظر إلى القوتين ، فوجد قريشاً لا تزال قوية مع ما نالها من الهزيمة في بدر ، وأن جيش محمد لا يزال ضعيفاً مع ما أحرزه من نصر ، ففضل التريث حتى يتم جلاء الأمر .

ولم تصبر قريش على هزيمة بدر ، وأرسلت من يستنفر القبائل العربية ، لمعاونتهم على محمد وأنصاره ، وكان عمرو بن العاص رابع أربعة ، أخذوا ينقلون بين القبائل ، ليقنعوها بالاشتراك في الحرب ، حتى جمعوا جمعاً كبيراً ، وخرجوا بها إلى المدينة . والتقى الجمعان فدارت الدائرة على المشركين وولوا الأدبار ، وظن المسلمون أن المعركة قد انتهت فتركوا أماكنهم ، ورأى منهم المشركون ذلك فكروا عليهم ونالوا منهم نيلاً عظيماً ، ثم عادوا إلى مكة فرحين ، يمينون أنفسهم بعودة أخرى للقضاء على محمد ^(١) .

ونظر عمرو إلى نتيجة هذه المعركة ، وخيل إليه أن معركة أخرى

(١) غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة عند جبل أحد في شمال المدينة وبين أحد والمدينة ما يقرب من ميل .

قد تكون الفاصلة ، ووجد أن قريشاً لا تزال كثيرة العدد ، وأن انتصارها قد أعاد الثقة إلى القلوب ، فأقنع نفسه بأن الأمر لم ينته ، وأن عليه أن يصبر حتى يرى النصر الحاسم ، وعاد مع القوم إلى مكة ، يعينهم على ما يعملون ويدبرون ، ويطرد عن ذهنه كل خاطر يدفعه إلى الإيمان في ذلك الوقت ، ويستعد مع المشركين لحرب محمد مرة أخرى .

آن الوقت

أخذت قريش تجلوسيوها ، وترى سهامها ، وتحدد حراياها ، وتدعو لحرب محمد وإبادة أنصاره . وكان اليهود في المدينة قد وقفوا من محمد كما نقف قريش ، قد امتلأت قلوبهم بغضاً للإسلام وأنصاره ، وحاولوا أن ينالوا الرسول بأذى : فردّ الله كيدهم ، ولما أعيتهم الحيل فكروا في تأليب الأعداء عليه ، وتكوين أحزاب من قريش ومن العرب توجه إلى محمد ضربة واحدة تكون الضربة القاضية .

وخرجت قريش ومعها عمرو ، وتلاقت أحزاب العرب واليهود خارج المدينة ، ونظر المسلمون فوجدوا أن الحزيرة العربية قد رمتهم بمجموع لا قبل لهم بها ، فأقاموا خندقاً حول مدينتهم ، وأسلموا أمرهم لله يحرم دينه ويحيط رسوله برعايته .

واشتد الأمر ، وزاغت الأبصار : وبلغت القلوب الحناجر ، لكن الله متمّ نوره ، ولو تجمعت لإخفائه كل قوى الشر ، فقدف الرعب في قلوب

هذه الأحزاب فدب بينها الخلاف ، ثم أرسل عليهم ربحاً عاتية في ليلة شاتية ، فكفأت قدورهم وطارت بأخبيتهم . فاضطربت قلوبهم وتحققوا أنهم دُفِعوا إلى هذا المكان ، ليؤخذوا جميعاً بتلك السيوف التي خطفت رموس زعمائهم في بدر ، فأسرعوا بالفرار عائدين إلى مكة في جناح الليل^(١) .

وعاد عمرو إلى تفكيره وتقديره ، وهاله أن تهزم هذه الجموع ، وأن يحال بينها وبين المدينة ، ولم يكن بينها وبين اكتساحها إلا خندق ، كانوا يستطيعون اجتيازه دون عناء ، وكاد أن يرجع إلى المدينة مسلماً تائباً ، لكنه رأى أن قريشاً قد رجعت بقوتها ، ففضل التريث ، وأن يتعد عن هذا النزاع الذي لم تستطع مهارته أن تدرك نهايته .

وما كاد عمرو يرجع إلى مكة ، حتى جمع رجالاً من قريش كانوا حائرين مثل حيرته ، وصارحهم بأن أمر محمد يعلو علواً كبيراً ، وأنه يرى أن يلحقوا بالنجاشي في الحبشة فيقيموا عنده ، ويرقبوا الفريقين من بعيد ، فإذا انتصر محمد كانوا بعيدين عن سطوته ، وإذا انتصرت قريش رجعوا إليها ، فاستحسن الجميع هذا الرأي ورحلوا معه إلى الحبشة .

ومكث عمرو ومن معه مدة يقلبون فيها النظر ، ويتابعون أخبار مكة والمدينة ، وعمرو يرى أن دين محمد يقوى كل يوم ، وبهزم كل القوى

(١) سميت هذه الغزوة غزوة الخندق أو الأحزاب ، وكانت في السنة الخامسة من

التي تفف في طريقه . وتأكد لديه أن ما كانوا يسخرون منه سيتحقق ،
فعاد مع أصحابه إلى مكة .

وقراءت أمام عمرو جيوش المسلمين تسير مرفوعة الرايات ، يقودها
العرب إلى كل مكان ، وليس بينها راية عمرو ، وقراءت له جيوش المسلمين
ندهم مكة ونعظم الأصنام ، وتنتقم ممن آذوهم وأخرجوهم ، وتخيل نفسه
قد وقع في الأسر . وأصبح ذليلاً يستعد للقتل ، أو يطلب العفو من محمد
الذي كان حرباً عليه ، وبدأت آثار هذا التفكير في عينيه وقسمات وجهه .
ولمحت عليه قریش ما ينم عن تغيره ، فخافت أن يكون عمرو قد مال
إلى الإسلام ، وبعث إليه من يكشف نواياه ويعرف حقيقة ما يسمعه
عن اقتراب إسلامه ، لكن الرجل الذي بعثه لم يستطع أن يعرف ما عزم
عمرو عليه ، وإن كان قد أحس اتجاهه .

واستمر عمرو يصارع أفكاره ، ويوازن بين أمر محمد وأمر قریش ،
حتى كان يوم من شهر صفر ، من السنة الثامنة للهجرة ، استيقظ عمرو ،
يعلن وجهه أنه قضى ليله ساهراً مؤرقاً . ثم امتطى راحلته ، وخرج من
مكة ، لا يعلم أحد أين سير ، ولم يبعده السبر حتى سمع صوتاً يناديه
في رفق .

— إلى أين يا عمرو يا بن العاص ؟ !

حيث أريد يا خالد يا بن الوليد ، وإلى أين أنت ؟ !

— ولماذا تبسم يا عمرو ؟ ! أنظن في شيئاً ؟ !

— ما ظننت بك إلا الخير ، أنت وصاحبك عثمان بن طلحة ، فأين تذهب ؟
— في الطريق الذي تذهب فيه يا عمرو .

— في طريق أنا ؟ !

— في طريقك أنت ! لقد فكرنا مثلما فكرت ، وانتهينا إلى

ما انتهيت

— حسناً فعلت يا خالد . لقد استقام المنسجم ^(١) ، والرجل نبي .

— لن تجدى المكابرة يا عمرو ، لقد أقنع العقول والقلوب ، وهل

بعد هذه البراهين الدامغة من شك ، ولا أدري لماذا تنتظر قريش ؟ !
إنها مكابرة وعناد بغير الحق !

— سيرون عاقبة هذا العناد يا خالد ، إن دين محمد يعلو ودين

الأصنام يهوى ، وقد ظللنا طويلاً في بهتاننا ، حتى أذن الله ، وكم أنا
نادم على هذا التأخير ، ولا أدري كيف أقابل الرسول بعدما قدمت .

ودخلوا المدينة ^(٢) . وتقدموا إلى رسول الله في حياء يسألونه الغفران

والصفح ، فبشرهم الرسول بأن الإسلام والمجرة يغفران ما تقدم .

وكان في جند المسلمين مكان لـذين السيفين القاطعين ، سيف

عمرو بن العاص ، وسيف خالد بن الوليد .

وبدأ الأفق يتسع لذكاء عمرو ودهائه ومهارته ، فلم يكد يستقر به

المقام ، حتى كان على رأس جيش من المسلمين يسرع إلى قبائل من

العرب شديدة البأس ، في شوق إلى أن يهز سيفه في سبيل الله ، كما هزه

من قبل ذلك في سبيل الشيطان .

(١) المنسجم : خف البعير .

(٢) في السنة الثامنة للهجرة .

الأمير

فرح المسلمون بإسلام عمرو ، وأرضى رسول الله طموحه ، فأسند إليه سرية من السرايا التي انبعثت في الجزيرة ، وكانت قبائل قضاة تنتشر ديارها على عشرة أميال من المدينة ، على طريق الشام ، وهي قبائل شديدة المراس معروفة بالبأس والشجاعة ، وقد بلغ النبي أنها تجمع جموعها وتأهب للزحف على المدينة ومهاجمة المسلمين ، فاستعرض الرسول قواده ، ورأى أن عمرأخير من يردهم ، ولاسيما أن أخوال أبيه من إحدى هذه القبائل .

وسار عمرو ويحش صغير لا يتجاوز ثلاثة آلاف من أشرف المهاجرين حتى وصل إلى آبار يقال لها ذات السلاسل ، ثم وقف يستطلع خبر قضاة . ليضع خطته على قواعد راسية ، فوجد هؤلاء القوم معبثين تعبئة قوية ، مصرين على الحرب ، ورأى أن عددهم أكبر من أن يتصدى له بجيشه الصغير ، فأرسل إلى النبي يطلب المدد ، ويصف الأعداء . ولما وصل الرسول دعوة عمرو ، وأمدّه بمائتين من عظماء المهاجرين والأنصار ، من بينهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وكان ذلك المدد تحت إمرة أبي عبيدة بن الجراح .

وصل المدد إلى ذات السلاسل ، ونظر المسلمون إلى الأفق ، فوجدوا أن وقت الصلاة قد حان فأذن المؤذن وأقيمت الصلاة ، وخطأ أبو عبيدة

ليؤم الناس ، لكنه سمع صوتاً قوياً ينبعث قائلا :

— مه يا أبا عبيدة ، فإن الإمامة لى وحدى !

— ليست الإمامة لك يا عمرو ، فقد بعثنى رسول الله أميراً .

— بل أمرنى رسول الله يا أبا عبيدة ، وإنما أنت مدد ، وقد أصبحت

أنت ومن معك جزءاً من جيشى !

— ولكنهم كبار الصحابة يا عمرو !

— ولكننا فى جهاد يا أبا عبيدة ، تتساوى فيه السيوف والمقامات ،

وأنت وهم تحت إمرتى ، لأنكم مدد لى ، وسوف أؤم الناس .

— إذن ، فليبق كل منا أميراً على ما هو عليه !

— لن يكون هنا إلا أمير واحد يا أبا عبيدة ، ولن يؤم المسلمين إلا

واحد ، إننا سنعمل صفّاً متحداً ، يتمثل فى هذه الصلاة .

ووجد أبو عبيدة إصرار عمرو على إماراته وحده فقال فى رفق :

— لا نختلف يا عمرو ، فقد أوصانى الرسول ألا نختلف .

— وبماذا أوصاك الرسول إذا عصيتك ؟

— أن أطيعك يا عمرو !

— إذن أنا أعصيك يا أبا عبيدة ، ولكن لا تكون الإمامة إلا لعمرو .

وتقدم عمرو فصلى بالناس ، ثم استأنف السير حتى التقى بالعدو ،

وحمل عليه حملة عنيفة مزقت شمله ، وقتلت كثيراً من شجعانه ،

ولاذت البقية بالفرار .

ولما رأى المسلمون هذا النصر ، ووجدوا العدو يفر في وسط الشباب هموا بأن يتبعوهم ، لياسروهم أو ليقتلوهم ، لكن صوت عمرو دوى في آذانهم : « اثبتوا ولا تتبعوا الفارين » .

ونظر بعضهم إلى بعض في دهشة يرددون في غضب :

— وكيف لا نأخذ أسلابهم ؟ ! وكيف لا نتبعهم حتى نقضى

عليهم ؟ ! فأجاب عمرو في حزم : « كفى هذه الرؤوس التي تملأ بطن الوادي ! فعادت الأصوات :

— « ولكن من حق المحاربين أن يتبعوا الفارين ! » وصاح القائد

في عزم :

هكذا أمرت ، ومن تبعهم فليس له إلا أشد العقاب !

وماج بعضهم في بعض ، ورأوا ألا يتعرضوا لسيف عمرو ، وأن يرفعوا أمره للرسول إذا عادوا إلى المدينة .

وأقبل الليل ، واشتدت سطوة البرد ، وأسرع الناس ليقودوا ناراً

يستدفئون بها ، لكن صوت القائد انبعث في قوة ، يزجرهم وينهاهم عن

إشعال النار ، فاشتد بهم الغيظ وهم بعضهم أن يخالف عن أمره ،

فحذروهم أن يفعلوا ، وأنذرهم بوقد ناراً بأن يلقيه فيها . وزادت شدة

البرد حتى كادت تدفع الأيدي إلى إشعال النار ، لكن سطوة القائد

كانت قوية ، فصبروا حتى يعرضوا أمره على الرسول ليكسر شوكته ،

ويعلمه فن قيادة الجيوش إذا بدا له أن يرسله لحرب أخرى ،

وأشرق الصباح وانتشر الدفء في ربوع الصحراء ، وهدأت موجة

البرد القاسية ، فهدأت معها النفوس الثائرة بعض الشيء ، وأمر القائد بالعودة فأسرع الجيش الظافر ، وقائده مزهوبنصره في أول جولة في الإسلام يتطلع إلى قيادة أكبر . ويمتد عينيه إلى الطريق الممتد شمال بلاد قضاة إلى الشام .

ولم يكد الحاربون يعودون إلى المدينة ويحيون الرسول ويحييهم حتى شكروا إليه قسوة عمرو ، وتفويته أسلاب قضاة عليهم ، وأنه أذاقهم ليلة قاسية البرد ، وأبى أن يستمع لآراء كبارهم .

فابتسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الشكوى ، ونظر إلى عمرو ليُسمع المسلمين رأيه . وقال في هدوء وجلال :

— ماذا تقول يا عمرو ؟

— لقد رأيت الخير يا رسول الله ، وما كان لي أن أصنع غير هذا !

— ألا تركتكم يتبعون المهزمين ؟

— كنا نحارب في بلادهم يا رسول الله ، وقد خفت أن يكون لهم

مدد ، فينتفض على المسلمين إذا تبعوهم ، وبعدوا عن مواقعهم .

فابتسم الرسول ونظر إلى المسلمين وإلى عمرو ، ثم قال :

— وما شأن الباريا عمرو ؟ ألم تكن الليلة قاسية البرد ؟

— لقد أحسست بما أحسوا يا رسول الله ، وكنت أود أن أشعلها

لأستأفئ ، ولكنني خفت أن يمتد ضوءها فيكشف المسلمين لأعدائهم وهم قلة ، فينقضوا عليهم .

وافتر ثغر الرسول ، ونظر إلى الشاكين فوجد أسارىهم تنفرج عن ابتسامات الرضا والتقدير ، فعرف أنهم قد اقتنعوا برأى القائد البصير ، ثم اتجه إلى عمرو قائلًا : « استعد يا عمرو لفتح جديد » .

السمفير

ما أقبل شهر ذى الحجة ، سنة ثمان من الهجرة ، حتى كان عمرو يسير إلى مملكة عُمان ، في الجنوب الشرق من الجزيرة للعربية ، وكان أهلها يعبدون النار ، يحكمها ملكان أخوان ، الأكبر منهما يسمى جيفر ، والأصغر يسمى عباداً .

ولم يستصحب عمرو في هذه المرة جيشاً ، وسار مكثفياً بعقله ودهائه وسعة حيلته ، ولم تكن عمان مجهولة لديه ، فقد كانت بقاع الجزيرة كلها تعرف عمراً وظرفه وعقله وسرعة بديته ، وحمل معه رسالة من النبي إلى الملكين ، ومضى حتى وصل إلى تلك البلاد .

كانت رسالة النبي للملكين كليهما ، لكن عمراً لم يذهب إلى جيفر الأكبر ، بل اتجه إلى عباد الأصغر لأنه كان أحلم من أخيه ، وأسهل خلقاً ، ولأن الأمر كان لجيفر ، فهو أكثر حرصاً على الملك ، وأجدر أن يرفض الدعوة .

واستأذن عمرو على عباد ، ودخل عليه وحياه ثم أخبره أنه موفد إليه

وإلى أخيه من قبل الرسول ، فالتفت إليه عباد وقال في هدوء :

— وماذا يريد نبيك يا عمرو ؟ !

— أن تدخلوا الإسلام ، وتؤمنوا بالله ورسوله ، وتنبذوا عبادة النار .

وتعبدا خالق السموات والأرض والماء والنار .

— أتركتم عبادة الأصنام يا عمرو ؟

— نبذنا الضلالة التي غشت عقولنا ، حتى مرقها ضوء الإسلام .

— متى أسلمت أنت يا عمرو ؟! عهدتك حرباً على الإسلام وصاحبه!

— لقد أسلمتُ يا عباد ، ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره

للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، لقد هدى الله

يا عباد وأذن لي بالخير فأسلمت .

وصمت عباد قليلاً ثم واصل حديثه قائلاً :

— علمنا أن في دين محمد بعثاً وحساباً وعقاباً . أكذاك يا عمرو ؟ !

— نعم يا عباد ، وإلا فأين تذهب الأعمال الصالحة ؟ وأين يذهب

المجرمون المعتدون ؟ لا بد من بعث ، لينال كل امرئ ما قدمت يداؤه .

— دينكم دين الآخرة يا عمرو !

— بل دين الدنيا والآخرة يا عباد ، فيه سعادة الدارين ، وإذا

أسلمت أنت وأحوك ظلماتك على ملككما وسلطانكما ، تنفذان فيه أمر الله ،

فتنصران المظلوم وتعينان الضعيف . وتأخذان من الغنى حق الفقير ،

أرايت أفضل من هذا لصالح الدنيا ؟ وإذا صلحت الدنيا صلحت الآخرة

يا عباد ، فأسلم يؤتلك الله ثواب الدنيا والآخرة .

هز عباد رأسه ونظر إلى عمرو ؛ ثم قال في هدوه وتأثر :

— ما أحسن هذا الذى يدعو إليه دينك يا عمرو ! ولو تابعتنى أخى

لأسرعنا إلى رسولك فآمننا به وبرسالته ، لكن أخى ضان بملكه ، لا يرضى أن يكون تابعاً ، بعد أن كان متبوعاً له الأمر .

— لن يصير تابعاً يا عباد ، سوف يظل على ملكه ، إن الرسول

يهدى إلى الخير يا عباد ، لا يريد أن يسيطر على الناس ، وإنما يبلغ أمر الله ؛ فمن آمن وعمل صالحاً فقد أصبح عضواً فى الإسلام ، ومن خالف وعاند أخرج من ضلاله بقوة الله لخيره وسعاده ، فإذا ترى يا عباد ؟ .

— أرى أن أذهب معك إلى أخى لتقرأ عليه كتابك ثم تسمع رده

وتتصرف بلباقتك وذكائك ، وأنا من خلفك ، أعينك وأدفعه إلى قبول دعوتك ، وأرجو أن يأذن الله له بالإسلام ويشرح قلبه للإيمان .

أخبر عباد أنجاه بمقدم عمرو وما دار بينهما من حديث ، وطلب

الإذن له حتى يرى الرسالة ، لأن عمراً يريد أن يسلمها إليه يدأ بيد ، لكن جيفر لم يأذن لعمرو ، وظل عمرو منتظراً بيابه أياماً ، وعباد يقابله ويحدثه ، ثم ينقل حديثه إلى أخيه ، ويطمئن عمراً بأنه سيأذن له .

وأخيراً دخل عمرو برسالة الرسول على جيفر ، وحياه وسلمه إياها ،

فأمره بالجلوس وأخذ يقرأها ويطل النظر فى سطورها ، وعمرو يختلس النظر إلى وجهه ليكشف ما ترسمه كلماتها عليه من علامات الغضب

والرضا ، وقرأ جيفر : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلى جيفر وعباد ابني الجلندي ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد . فإني أدعوكم بدعاية الإسلام ، أساموا تسلموا ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . وإن أقررتمنا بالإسلام ، وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما » ، ثم دفع الرسالة إلى أخيه عباد فقرأها ، واعتدل جيفر ، والتفت إلى عمرو ثم قال في كبرياء :

— نبيك مرسل إلى الناس كافة يا عمرو ! أليس كذلك ؟ !

— إلى الناس كافة ، وإلى الإنس والجن أيها الملك !

— وماذا يصنع محمد إذا رفضتُ دعوته ؟ !

— إن الرد في آخر الرسالة ! أنتفضل فتعيد قراءتها ؟ !

— وماذا صنعت قريش يا عمرو ؟

— إما راغب في الدين ، وإما مقهور بالسيف ، وإن لم تسلم أنت

وتتبعه وطئت خيله ، وأبادت رجالك ، فأسلم تسلم وتظل والياً على قومك ، وتحقق دماءهم ، وتريحهم من التزال .

— لقد بلغني أن رسالات مثل هذه أرسلت إلى الملوك فسخر بعضهم

من نبيك ومزق رسالته وأهان رسله !

— ستدهمهم خيل الإسلام ، وسيرون أى منقلب ينتقلبون !

— وملوك الفرس والروم ؟ !

— وملك الفرس والروم وكل خارج عن عبادة الله ، وليست بلادهم ولا بلادك بعيدة عن أسنة المسلمين ، التي تتطاير إليها قلوب الكافرين فتدخلها دون عناء .

— أتهدنى يا عمرو ؟

— بل أقدم لك الخير ، ولست أريد إلا الإجابة عن الرسالة حتى أعود بها إلى الرسول ، وإن كنت لا أزال كبير الأمل في حزم جيفرو بعد نظره .
رفع جيفر رأسه ، ثم دار به في أنحاء المكان ، ثم أعاد النظر إلى عمرو قائلاً :

— سأجيبك غداً يا عمرو !

ونخرج عمرو وقد دفع في قلب جيفر خوفاً ثقيلاً ، وملاًه مع هذا الخوف بالأمانى ، وهزه هزة أرتقت ليله ، حتى أصبح وقد انتهى إلى رأى .
وأشرق الصباح فأسرع عمرو وأعباد إلى جيفر ، وقد كبر عندهما الأمل في أنه اهتدى إلى الإسلام ، لكن عمراً لم يرفى وجهه نور الهدى ولا بسملة الإيمان ، فعلم ما انتهى إليه واستعد للجواب ، واتجه الملك إلى عمرو في عزة قائلاً :

— قد رأيت الرأى يا عمرو .

— خيراً إن شاء الله !

— خير لنا وشر لك .

— شر لى ؟ ومن الذى يستطيع أن يصيبنى بشر ؟

— شر أو خير ، بلغ محمداً أن عُمان بعيدة عن سيوفه . وأن فيها سيوفاً ورماحاً سترده إذا حدثته نفسه أن يقترب منها .

أخبره أن مُلك الآباء والأجداد لا يفرض فيه بهذه السهولة . لقد غرکم النصر على قريش حتى طمعتم في بلاد الله ، وطار بكم الخيال حتى أدخلكم بلاد الأكاسرة والقيصرة ^(١) ! أستمعت يا عمرو ؟ !

— سمعتُ ، وعليك أن تتحمل لائم عنادك !

وخرج عمرو من المجلس رابط الجأش ، عالماً أن تلك الغضبة دفعة من دفعات الملك والخوف على السلطان ، وأن جيفر سيعود إلى رشده ، وتظاهر بالعزم على الإسراع بالعودة ليلبلغ الرسول .

وفطن عباد لعواقب عناد أخيه ، وأخذ يوضح له حقيقة الأمر ويبسط له ما علمه من قوة المسلمين ، ويحذره جنودهم التي لا يقف أمامها معاند ، ولا تصبر لها قوة ، وينصح له بقبول دعوة النبي واعتناق الإسلام ، ويعيد معه قراءة الرسالة مرة بعد مرة ، ويضع إصبعه عندما يخافه من كلماتها . مبيناً صراحة الرسالة في بقاء ملكه له ، وأن هذا الملك سيزول إذا استمر في هذا العناد ، وما زال به حتى اقتنع وعاد إلى الصواب .

وأسرع الجند يبحثون عن عمرو خائفين أن يكون قد غادر عمان . وجدوا في البحث حتى وجدوه . كأنه على أهبة السفر ، فأقبل على الملك

(١) الأكاسرة ملوك الفرس ، الواحد يسمى كسرى وهو لقب لكل ملك من ملوكهم ، والقيصرة ملوك الروم الواحد قيصر ، وهو لقب لكل ملك منهم .

فوجده هاشماً باشاً ، يمد يده إليه مصافحاً ، ويسأله أن يعلمه كيف يؤمن بالله وبرسوله .

وردد عمرو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وردد جيفر وعباد هذه الشهادة خلفه ، ثم طار في عمان أن الملكين قد آمنا ، فأسرع الناس أفواجاً يدخلون في دين الملك .

وغزا عمرو هذه المملكة بسيف العقل والسياسة ، ولم يرق فيها قطرة من دم ، وأرسل بهذا الفتح إلى رسول الله فسر به سروراً عظيماً ، وكافاه بولاية الزكاة في تلك البلاد ، فأقام مسروراً برضا رسول الله وبهذا المنصب المالى الكبير ، يجمع المال من الأغنياء ويوزعه على الفقراء ، ويأخذ منه نصيبه الذى فرضه الدين ، ويعلم الناس قواعد الإسلام ، وينشر نور الله في تلك البقاع محبوباً موقفاً مرضياً عنه ، حتى جاءه ذات يوم كتاب من المدينة ، ففزع حينما نظر إليه لأنه لم يكن مختوماً بخاتم الرسول .

فض عمرو الخطاب بيدين مرتعشتين ، وقلب راجف خائف ، وألقى بصره سريعاً بين سطوره ، وأخذ يقرأ والدموع تتساقط من عينيه والجزع يرتسم في وجهه ، لأن الخطاب كان من أبى بكر يخبره بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وباختياره خليفة بعده ، ويأمره أن يبقى كل ما صنعه الرسول كما هو ، فلا يحل شيئاً مما عقد ، ولا يعتمد شيئاً مما حل . وتمالك عمرو بعض قوته ، وخرج على الناس ينبئهم بوفاة رسول الله ، ثم جلس يتقبل فيه العزاء كما يتقبله في أعز عزيز عليه . واستمر في

إخلاصه حتى أتاه أمر أبي بكر يستدعيه لجهاد شاق جند فيه المسلمون جميعاً ، فطار عمرو إلى المدينة مرحباً بالضرب والطعان في سبيل الله ، يود أن يعرف وجهته وإن كان خياله لا يزال يمتد إلى طريق الشام .

الجزيرة الثائرة

كان بعض العرب قد أسلم ظاهراً ، وقلبه ساخط على دين محمد ، لأنه باعد بينه وبين الحرية الواسعة التي كان يعيش فيها دون رقيب ولا محاسب ، ولم يكن مضى بهم زمن طويل يروضهم على فرائض الدين من صلاة وصيام وزكاة ، فما علموا بقبض ^(١) الرسول حتى نفضوا أيديهم من بيعته ، وثاروا يخالعون ما لبسوه من حلال الإسلام النقية الطاهرة ، ونهض أبو بكر لقتالهم جميعاً ^(٢) .

وتلقى عمرو خطاب الخليفة فأصبح على ظهر الطريق من عمان إلى المدينة ، يخرق القبائل الثائرة .

ومر ببلاد بني عامر فوجدهم يراودون أنفسهم على الردة ، والانضمام إلى الثورة التي تريد اشتعالاً كل يوم ، ونزل عند زعيمهم قُرة بن هيرة ، فاحتفل به وأكرم مثواه ، ولم يتحدث إليه في شيء عما يراود قومه ، حتى عزم على الرحيل ، فخلا به وقال في هدوء :

(١) قبض الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة الحادية عشرة من الهجرة .

(٢) سميت هذه الحروب : حروب الردة .

— أرايت هذه الثورة يا عمرو ؟ !

— شرارة ضئيلة ستطفأ يا قرّة !

— ولكنها الجزيرة كلها يا عمرو !

— وقد كانت كذلك قبل الإسلام ! أنسيت يا قرّة ؟ !

— لكن محمداً قد مات يا عمرو !

— وبقى دينه يا قرّة ، وبقى نور الله في قلوب المؤمنين ، وبقيت

سيوف قوية ستغمد في قلوب المرتدين ، وبقى نور محمد يا قرّة !

— أنت واثق من النصر يا عمرو ؟ !

— أراه كما أراك يا قرّة أمانى ! إن السيوف التي جاهدتهم ليسلموا ،

ستجاهدهم ليعودوا ، وستكون أقسى وأعنف يا قرّة !

— ألا ترى لذلك حلاً غير الحرب يا عمرو ؟

— أن يرجعوا إلى حوزة الإسلام ، فيمنعوا سيوف المسلمين من رقابهم .

— حلاً من جانب الخليفة يا عمرو ، حلاً يريحكم ويريح الناس ،

الزكاة يا عمرو ! إن العرب لا تطيب أنفسهم بهذه الضريبة ، فإن

أعفيتموها من الزكاة فستسمع لكم وتطيع .

— وإن أبينا يا قرّة فلن نسمع لنا ولن تطيع ! أكفرت يا قرّة ؟ !

لاني أراك على شفير جهنم ، تحاول أن تردى فيها مع من تردى ، أنتخوفنا

بالعرب ؟ ! فوالله لأوطئن عليهم وعليك الخيل ، ولأصلن إلى عنقك ،

ولو أخفيت في يد الجن !

قذف عمرو بهذه الكلمات في قلب قرة وقومه ، ثم أسرع إلى المدينة ، فوجد أحد عشر لواء ، من بينها لواء عمرو بن العاص ، فلم يخلع سلاحه ، واتجه كل لواء إلى ناحية من الجزيرة ، وكانت وجهة عمرو بلاد قضاة ، التي ذقت مرارة سيفه في ذات السلاسل ، فوجدهم متجمعين للقائه ، قد شحذوا السيوف وحددوا أسنة الرماح ، فانقض عليهم أسداً هادراً حوله أسود زائرة قد ألهمها شجاعة القائد ، فأخذت تطير الهامات وتمزق الأجسام وتفري العظام .



وأحس الأعداء بسيف عمرو ، وتذكروا لهيبه في ذات السلاسل ، وعلموا أن عشرة سيوف مثل سيفه انقضت على الثائرين أمثالهم ، فأسرعو تائبين مستغفرين مقدمين الزكاة مبادرين إلى الصيام والصلاة .

وعادت الألوية تزهو بالنصر ، وتعلن عودة المرتدين جميعاً إلى ساحة الإسلام ، لكن هذه السيوف قد حميت وتحركت ، وأخذت تنظر إلى المشرق والمغرب ، وأحس أبو بكر أنها لا تريد دخول أغمادها ، وكان من بينها سيف عمرو ينظر ويطل النظر ، ويشير ضاحكاً في رونقه إلى بلاد الشام ، فلا يزال في الدنيا بلاد لم تطعم الإيمان ، وقد دعاهم الرسول بالحسنى فأبوا ولم يبق لهم إلا السيف .

عرف أبو بكر ما تريد هذه السيوف ، فأرسلها إلى المشرق لتزيل ظلم كسرى ، وإلى الشمال لتزيل ظلم الروم ، وسار من بينها سيف عمرو يتوهج ويسرع إلى الفتح الجديد .

الألوية الأربعة

انطلقت السيوف الإسلامية مخترقة حدود الجزيرة ، ومدت جناحاً طويلاً إلى الشرق ، أخذ يضرب جيوش كسرى فتفر فزعة من هول ما تلاقيه .

وكان الروم في الشام قد تيقظوا لهذه الدولة العربية التي اكتملت وحدتها ، وخرجت جيوشها عن بلادها ، ورأوا أنهم إن لم يكسروا شوكة هذه الدولة ، فسوف تكتسح أرضهم ، كما سمعوا عن بشارة رسوخا لأصعابه ، فحشد إمبراطورهم جيشاً كبيراً على حدود الشام ، ليلتهم به هذه الدولة قبل أن تفكر في نزاله .

ولم يكن المسلمون في غفلة عما يصنع هرقل ملك الروم . وكان الجناح الثاني من أجنحة النسر الفاتح ، يتأهب ليمتد إلى بلاد الشام ، فبضر بها كما يصنع الجناح الشرقي المنتصر ، وكان عمرو بن العاص يرجو أن يكون قائد هذا الجناح كما أن خالد بن الوليد قائد ذلك الجناح ، لكن الخليفة رأى أن تكون ألوية الشام أربعة ، أحدها يتجه إلى حمص ^(١) على نهر العاصي ، بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وواحد يتجه إلى دمشق على نهر بردى ، بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، والثالث يقصد إلى وادي نهر الأردن ^(٢) ، بقيادة شرحبيل بن حسنة ، والرابع يتجه إلى فلسطين ^(٣) بقيادة عمرو بن العاص .

وقد عقد الخليفة هذه الألوية ، لكنه تذكر ما حدث في ذات السلاسل بين عمرو وأبي عبيدة ، فأوصى عمرأ ساعة الوداع أن يكاتب أبا عبيدة ، وينجده إذا استنجد به ، ولا يبرم أمراً إلا بمشورته .
القائد إذن أبو عبيدة ؟ ! لكن الإمرة لا تعطى ولكنها تنتزع بالمهارة والعمل ! أربعة جيوش تسير في أربع جهات ؟ ! لو كنا جيشاً واحداً لكان أجدى ، ولكن أقدر على مواجهة قوة الروم الهائلة ! وهكذا كان عمرو يحدث نفسه وهو يبتعد عن المدينة ، مقدراً أن الأمر سينتهى إلى ما يراه .

(١) بين دمشق عاصمة الشام وحلب .

(٢) كانت الأردن تشمل الفور وطبرية وصور وعكا ، وكان نهر الأردن الكبير يصب

في بحيرة طبرية .

(٣) آخر كور الشام من ناحية مصر ، عاصمتها بيت المقدس .

لكن لا تكفى القوانين المكتوبة ، ولا تفيد قواعد النظام المدونة ! لا بد من القلب المؤمن المصدق ، ذلك القلب هو الذى يحرك السيف ويهز الرمح ! من أين أتى هؤلاء بالسلاح الذى اجترعوا به على مهاجمة الفرس والروم ؟! لقد كانوا يقدمون علينا نجاراً ، ليس فى أيديهم إلا بعض سيوف هزيلة ورماح ضعيفة يحمون بها قوافلهم ، أتلك عدتهم التى يهاجمونها بها ؟! ما أدومها عدة ! إننا سنخطف أرواحهم فى لحظات ، ولكن لعلهم اخترعوا سلاحاً جديداً لا نعلمه ، فلا بد من كشف الأمر قبل الإقدام عليهم .

كان هذا حديث قائد الروم لنفسه حين سبغ فكره ليضع خطته ، ثم دعا رجلاً يثق به من عرب الشام وأمره أن يذهب إلى معسكر من هذه المعسكرات التى تتوهم فيرانها بالليل ، وتقفز خيولها فى النهار ، ويندرس بينها ثم يعود بخبرها وأنواع أسلحتها ، فأسرع العربى وقضى ليلة بين المسلمين ، ثم عاد فى الصباح إلى قائد الروم .

— ماذا وراءك يا عامر ؟

— جيوش جرارة كأنها السيول المتدافعة يشد بعضها بعضاً !

— لكن العدد ليس كل شيء فى الحرب يا عامر ، ونحن أكثر منهم عدداً .

— عدد وعدة يا سيدى !

— عدة ؟ ! ومتى كان للعرب عدة يا عامر ؟ ! ما علمنا لهم إلا نصالاً قليلة يتضاربون بها إذا اختلفوا ، ورماحاً قد تنتصر بها القبيلة على القبيلة ،

أما أن تنتصر بها على الروم ، فذلك بعيد يا عامر ! وكيف هذه العدة يا عامر ؟ أرايتها ؟

— عدة قوية يا سيدى ! لقد وصلوا أفئدتهم برماحهم ، وأطالوا سيوفهم بأوتار قلوبهم ، كبيرهم كصغيرهم ، وسيدهم كعبدهم ، يفترشون الغبراء ، ويقفزون على الخيول كأنهم السهام ، يؤذن مؤذنتهم فيتراصون كتلة واحدة تركع إذا ركع وتسجد إذا سجد ، لا يتخلف منهم أحد ، لا كبير ولا صغير أمام قاذوئهم ، أليس ذلك كله من عدد الفوز ياسيدى ؟ ! ماذا يعمل السلاح القوى مع القلب الخائف ؟ !

— أنتظن عرب الشام معنا يا عامر ؟

— وهل فى ذلك ريب يا سيدى ؟ ومن الذى بخامره شك فى إخلاص عرب الشام لسادتهم الروم ؟ !

— أتحدث بقلبك يا عامر ؟ !

— أترتاب فى إخلاصى يا سيدى القائد ؟ إن عرب الشام رهن إشارتك ، فر تنطلق سيوفهم ، وتندفع رماحهم ، وتطير أيديهم رؤوس العرب .

— تطير رؤوس العرب أمثالهم ؟ ! شكراً لك يا عامر .

وانصرف العربى وترك القائد الرومانى وحده بعد أن قذف الرعب فى قلبه ، فلف القائد رأسه براحتيه ، وراح فى تفكير عميق ، ثم انتفض مغتر الشجر كأنه قد عثر على رأى يقابل به هذه القوة التى تفضل الموت على الحياة ، وتدعو الجنة بظبا السيوف ، لكن خاطراً جديداً ففز إلى ذهنه . فأعاده مقطب الوجه بحادث نفسه فى هم ثقيل :

— وهل نأمن أهل الشام ؟ ! إننا قد ظلمناهم واستأثرنا بكل شىء دونهم ، ليس لنا ما نرجوه من عون إلا عند ملوك الغساسنة ^(١) الذين كنا نرشوهم ليردوا عنا هؤلاء العرب ، لكن هؤلاء سيحذون إلى بنى جنسهم ، وسوف تذوب سيوفهم إذا لامست رقاب إخوانهم ! وهل أستطيع إزالة الخوف الذى تجمع فى قلوب جند الرومان من سطوة المسلمين ؟ ! لقد بلغهم أن سيوف هؤلاء المسلمين تشير إلى قلوب الأعداء فتتطاير إليها لتتصرف فيها كما تشاء ، إنى أعرف ما يتردد فى أنحاء دولتنا اليوم من الخوف والتخاذل ، إنى لا آمن أن ينصرف الناس عنا إذا جد الجدد ، ولا آمن أن يفر جنودنا إذا دارت رحى الحرب واندفع هؤلاء المسلمون يكبرون فتز تكبيراتهم جوانب الأرض ، إنه الإيمان الذى ينتصر ! ومن لى بالإيمان أملاً به قلوب جنودى ؟ !

ودارت الأرض بقائد الروم ، وانطلق ذهنه يقلب صفحات القيادة التى مارسها فى حياته الطويلة ، واشتد به اليأس ، وكاد يعلن عجزه عن مواجهة المسلمين ، لكن فكرة جديدة أسعفته فانتفض صائحاً :
لا ، لن أنكل عن القتال ! لن ألتطخ شرفى بخزى الأبد ، سوف أقاتلهم ، سوف أريهم أفانين الحروب ، سأبعث فى جنودى روحاً قوية .
السلاسل ! السلاسل ! سأقيد جنودى بالسلاسل حتى لا يفرؤا ، سأربط

(١) كان الروم قد أنشؤا إمارة على حدود الشام يتولى أمرها العرب ، سميت إمارة الغساسنة يحكمها بنو غسان ، وقد كان للملكها سلطان وقوة ، واشتهر من بينهم أشال الحارث بن جبلة الذى عينه الإمبراطور « جستنيان » سنة ٥٢٩ م أميراً على جميع قبائل العرب فى الشام ومنحه لقب بطريق .

بعضهم ببعض ، سأبعث لكل فريق من هؤلاء العرب بجيش كبير يلتمه في ساعة من نهار ، لقد وزعوا أنفسهم في بلاد الشام فهان أمرهم ، أين هؤلاء العرب أبناء الخيام والرمال من قادة الروم المحنكين ؟ ! سأنتصر ! سأنتصر ! .

صاحب الراية

أسرع قائد الروم بتنفيذ خطته ، فسارت جيوش أربعة هائلة ، أقل جيش فيها يناهز تسعين ألفاً كاملي العدة والعتاد ، ونظر المسلمون إلى هذه الجموع الحاشدة فخافوا أن تحطم قواهم ، وفكروا فيما يصنعون ، أيهاجم كل فريق ما وجه إليه ويستعجل الشهادة أم يتقهقروا إلى الصحراء حتى يأتيه المدد ؟ وتنادى المسلمون باستعجال الشهادة وأبوا أن يتقهقروا شبراً واحداً ، وأسرع القواد بالكتابة إلى الخليفة يعرض كل منهم الأمر وينتظر التوجيه ، ولم ينس أحد منهم عمراً ومهارته في الظروف العصبية ؛ فكتبوا إليه جميعاً يستشيرونه .

وسارت كتب ثلاثة من عمرو إلى القواد ، تقترح اجتماع الجيوش الأربعة فتم عدتها عشرة آلاف فيصبحون قوة كبيرة ، ورأى أن يكون اجتماعهم على نهر اليرموك جنوب دمشق ، لأن واديه أصلح مكان تختطف فيه هجمات الأعداء ، وسارت من المدينة كتب أربعة يشير فيها الخليفة على القواد بمثل ما أشار به عمرو ، فيضمون جيوشهم في مكان واحد ليكونوا بذلك قوة لا تهزم من قلة .

وأحبطت هذه الخطة خطة قائد الروم ، فعاد يجمع جيشه ويتقدم به

إلى اليرموك ، حتى وقف به في السهل أمام جيش المسلمين ، وهو مزهو بالسلاسل التي تشد الأوساط ، مغتر بتلك الألوف المؤلفة وإن كان هذا السهل لا يتسع لحركاتها ، ولا يستطيع أن يتفهقر فيه إذا قدر له الهزيمة ، وأخذ القائد يحدث أعوانه في سخرية من العرب قائلاً :

— كيف يظن هؤلاء أنهم سيفلتون من أيدينا ؟! هجمة واحدة سوف تسحقهم ولا تبقى منهم باقية ! إننا نستطيع أن نقبض عليهم بأيدينا ولا حاجة بنا إلى السلاح ! إن قوتنا كبيرة لو تجمعت أنفاسها لأطارتهم من فوق الأرض ! أرايتم هذه الفكرة الجديدة ؟! فكرة السلاسل التي تشد الأوساط ! — ولكنها لا تشد القلوب يا سيدي !

— أمرتاب أنت في قوتنا وعزمنا ؟! أبعد هذه الفكرة الجبارة بخامرك شك في النصر ؟! ألم تر العرب بملابسهم المرقعة وعدتهم الهزيلة ؟! ألم تر إلى سيوفهم وقد شدوا على مقابضها خرقاً بالية حتى تثبت في أيديهم ؟! أتظن أنهم ينالون بها الرعوس التي تحصنها الخوذات المتينة ، وهذه الصدور الملفوفة بالدروع السابغة ، وتلك الأذرع والأرجل المغلفة المنيعه ، ثم السلاسل ! ليس بيننا بعدها جبان ؛ لأن الشجاع سيشد الجبان ويثبته ! — وكيف إذا شد الجبان الشجاع ؟!

— لا جبان ! لا خائف ! ضعوا النصر أمامكم وتقدموا سراعاً فما هي إلا ساعة حتى يرى العرب جزاء اجتراءهم على سادتهم الرومان ! — لقد جاءهم مدد من الشرق يا سيدي القائد !

— علمت أن مدداً جاءهم بقيادة رجل منهم يسمى خالد بن الوليد يقال إنه هازم الفرس^(١) ، لكن الروم غير الفرس ، سزيرهم ألوان الموت ، سزيريلهم من جزيرة العرب كلها ، هيا إلى النصر ، هيا إلى الطعان .
 والتقى الجمعان ، وحمل الروم على المسلمين حملة جبارة جمعوا فيها كل قوتهم ، وركزوا فيها كل ما مارسوه من فنون الحرب ماثات السنين ، وقعقت السيوف ، وتحركت الراح ، وطارت الرؤوس ، وتساقطت الجثث . واشتد الرومان في اندفاعهم فأنكشف المسلمون وولى صاحب رايتهم ، وولى المسلمون وراء تلك الراية الطائرة إلى الخلف ، لكن فارسين اندفعا إليها ، يتسابقان لانتزاعها من صاحبها ، وكانت يد^٢ منهما أسبق من الأخرى : فاستقرت الراية في يد عمرو بن العاص ، واندفعت إلى الأمام تشق طريقها إلى صدور الأعداء .

وعاد المسلمون يتقدمون خلف رايتهم ، واشتد القتال ، وبرزت الجنة أمام الأبطال ، فأطارت سيوفهم الهامات ، وشقت الراح الصدور ، ولم ينقذ الروم إلا ظلام الليل ، قد أسرع يعلن هدنة قصيرة إلى الصباح . مدت الشمس في الصباح أشعتها تنحسس الأرض الغارقة في الدماء ، فارتطمت تلك الأشعة برحى الحرب الدائرة ، وبالدّم المتقاطر والجثث

(١) كان خالد بن الوليد يفتح العراق ويهزم الفرس منتقلا من نصر إلى نصر ، ولما رأى المسلمون في الشام مطاولة الروم طلبوا مدداً من الخليفة أبي بكر فكتب إلى خالد يأمره بالمسير بنصف من معه من الأبطال ، فاخترق بيمشه الصحراء ووافى المسلمين باليرموك .

المتساقطة ، وبسيوف المسلمين ترتفع لتتخلص من الهامات ، ثم تنخفض لتفلق غيرها .

واشتدت وطأة المسلمين وأحس الروم بقسوتها ، وشدت السلاسل أوساطهم فعاقت حركاتهم ، وجذب الجبناء منهم الشجعان فقروا جميعاً تاركين أقفينهم لسيوف المسلمين تقطع منها ما تشاء ، وعمرو يشد العزائم ، ويلهب الحماسة ، ويدعو إلى النصر ، حتى لحقوا بالعدو وحطموا ما بقي من قوته .

وعاد المسلمون إلى مضاربهم فرحين بنصر الله ، وهب عمرو يستعد لإتمام الفتح ، وتحقيق بشارة الرسول ^(١) .

أرطبون العرب

انساب جيش المسلمين في الشام ينتقل من نصر إلى نصر ، ولواء عمرو بين الألوية سلاح نافذ وقوة مدبرة ، حتى فتحوا دمشق ، ثم ترك عمرو أبا عبيدة ومن معه يفتحون شمال الشام ، وسار بجيشه إلى فلسطين ليقضي على قوة الروم المستعدة لنزاله بقيادة والي فلسطين الذي يسمى أرطبون .

كان هذا الوالى داهية من دهاة الروم ، مشهوراً ببعد النظر والقدرة الفائقة على التخلص من المآزق الضيقة ، وكان قد استعد للقاء المسلمين فركز قوة كبيرة من جنده في بيت المقدس ، ومثلها في غزة على مقربة

(١) كانت موقعة اليرموك في السنة الثالثة عشرة الهجرية .

من حدود مصر ، وأخرى في الرملة بين القدس وعسقلان على شاطئ
بحر الروم ، ثم ركز قوته هو في مكان يسمى « أجنادين » (١) .

ورقف عمرو أمام جيش كثيف كامل العدد والعدة ، ولم يكن
يتوقع أن يحشد الأرطبون في فلسطين مثل هذا الجيش ، وكان أبو بكر
الخليفة الأول قد توفي وخلفه عمر بن الخطاب ، فأرسل عمرو إلى عمر
يصف قوة أعدائه واستعدادهم ، وكان عمر جالساً بين أصحابه في المدينة
يدير المعارك الناشئة بين قوة الحق وقوى الباطل في الشرق والغرب ، فلما
قرأ كتاب عمرو تهلل وجهه وابتسم ثم قال لجلسائه : « رمينا أرطبون الروم
بأرطبون العرب ، فانظروا عم تنجلي ! » .

وسار أرطبون العرب إلى أرطبون الروم ، وحاول كسر قوته فلم يوفق ،
ولم يستطع أن يبني خططه على ما تخبره به العيون عن جيش الأعداء ،
ولم يشف نفسه ما يحصلون عليه من معلومات ، فعزم على أن يعتمد على
نفسه ويدخل معسكر الأعداء ، كأنه رسول من رسل المسلمين ، فيعلم
ما يريد علمه ويرتب عليه خطته .

ذهب عمرو إلى مقر الأرطبون ، واستأذن عليه مدعياً أنه رسول عمرو
ابن العاص قائد جيش العرب ، فأذن له الأرطبون ، ودخل عمرو فحياه ،
فصعد الأرطبون فيه نظره وصوبه ليكشف رسول عمرو ، ويعلم ما يريد
ثم قال :

(١) مكان بفلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين .

-- أنت رسول عمرو بن العاص ملك المسلمين ؟ !



— عمرو بن العاص قائد من قواد المسلمين يا سيدى وليس ملكاً من الملوك ، وليس للمسلمين ملك ، ولكن لهم خليفة لا يبرم أمراً إلا إذ استشار أصحابه . يجلس بينهم كأحدهم . يفتش الأرض ويكتفى بالخش وهل عمرو هذا داهية كما يقولون ؟

— عمرو يا سيدى سهم من سهام الله ، يعرف أين يضع قدمه وأد يوجهها . وما دخل فى شيء إلا خرج منه .

— لعلك تنظر إليه نظر الجندي المطيع إلى قائده ! ولكن ، متى تعلمت الحرب ؟ ! إنا عهدناكم أمة بدوية لا تعرف إلا مواقع الغيث ومواضع الكلاء ، فتى وصلتم إلى هذا العرور الذى تريدون به أن تغلبوا كسرى وقيصر ؟ !

— ليس فينا يا سيدى إلا فارس أو محارب ، قد ربنا صحراؤنا على
 احتمال المكاره ، وعلمتنا الطعان والضرب ، وأرشدتنا إلى مقاتل الأعداء ،
 وقد انتصرتم بسواعدنا قبل الإسلام ، وسيوفنا باليرموك شاهدة ناطقة .
 — إنك ماهر فى سوق الحديث ، ذو قدرة فائقة على تصوير قوتكم
 بغير الحق ، ولكن كم يقود عمرو إلينا ؟ كم عدد جيشه ؟
 — لا أدرى يا سيدى ، فما أنا إلا رسول عمرو ، جئت أبلغك رسالته
 وأدعوك بلسانه إلى الإسلام ؛ فإن أبيت فالتسليم ودفع الجزية . وإن
 أبيت فالحرب .

— الحرب ؟ ! وهل تظنون أنكم ستغلبون الأرطوبون ؟ !
 — هل الأرطوبون أعز على سيوف المسلمين من « هرقل » كبير الروم ؟ !
 إن السيوف التى أصابت أفئدة جيش هرقل مستصيب فؤاد من يقف
 أمام جيش عمرو ، إننا دعاة سلام وإسلام . نجاهد من أجل الحق
 وإعلاء كلمة الله .

— وما أقرى الخطط التى تتصرون بها ؟ لقد رأينا منكم فتناً غير
 ما عهدنا ، وأى الوجوه تلبسونها ساعة المعركة ؟ فقد حدثنا من قاتلوكم
 أنكم تلبسون وجوهاً غير وجوهكم ، وجلوداً غير جلودكم ، وتمسكون سيوفاً
 غير سيوفكم ، فكيف تصنعون ذلك ؟ !

— هى وجوه المسلمين ؛ غاضبة فى الحرب باسمه فى السلم ، أما السيوف
 والجلود فهى سيوف المسلمين وجلودهم ، كساها الإسلام رهبة وألبسها
 جلالاً ، أما الخطط الجديدة فلا أدرى يا سيدى فيم يفكر عمرو ،

ولا أعرف إلا أننى رسوله إليك .

وسمع الأرطبون كلام هذا العربى ، دهشاً من ذكائه ولباقته ،
لا يدرى أنه هو عمرو نفسه ، ثم صاح فى كبرياء :

— أبلغ قائدك أننا قد جمعنا له الجموع وأعدنا له العدة ، وسوف
لا يجد عندنا إلا ضرباً وطعناً لم يذقه من قبل !

أبلغه أن قوة الروم العاتية قد اجتمعت فى جيش الأرطبون ، وأن
فلسطين ستكون الفاصلة بيننا وبينه ، لا إسلام ولا جزية ، بل السيف
والرمح ، أسمعت ؟ !

ولم يبد على عمرو ما ينبئ بحقيقته ، إلا أن الأرطبون قد أخذ بحديثه
وذكائه ، وجعل يتفكر فى هذا العربى الذى جاء رسول قائد العرب ، ويستجمع
كل ما يعرفه من صفات عمرو ، حتى رجح لديه أن هذا الرسول قد يكون
عمراً نفسه ، وإلا فهو بطل من أبطاله لا ينبغي أن يفلت من يده ،
فأوحى إلى بواب الحصن أن يقتله إذا مر به خارجاً ، ثم أظهر البشاشة
لهذا الرسول ، وأمر له بجائزة كبيرة فانطلق يريد الباب .

— قف يا عمرو ، أين تذهب ؟ !

كانت هذه العبارة همساً خفيفاً من عربى من الشام رأى عمراً يحمل
الجائزة ويسرع بالخروج ، فوقف عمرو ، ودنا منه العربى فى حذر ثم
همس فى صوت خفيض :

— قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج .

وكان العربى قد علم ما أضمره الأرطبون ، فانتظر حتى خرج عمرو ثم أتى إليه هذه العبارة واثقاً من ذكائه ؛ وانطلق سريعاً وتوارى عن نظر عمرو ، وتركه يردد فى نفسه :

« أحسنت الدخول فأحسن الخروج ! » ولم يطل الوقوف بعمرو فرجع بجائزته سريعاً إلى الأرطبون ، واستأذن عليه فدهش لعودته وصاح قائلاً :
— لماذا عدت أيها العربى ؟! ألك حاجة ؟! أنسيت بعضاً من رسالة قائلك ؟!

— لم أنس يا سيدى ، ولكنى عدت لأكرر شكرى على هذه الجائزة العظيمة ، وأرجو أن يصلك شكر غيرى على نعمتك وجزيل كرمك .
— شكر غيرك ؟! إن الجائزة لك أنت وحدك !

— كيف أستطيع أن أختص بها ، ولئى أبناء عم وإخوة عشرة على الأقل ؟! وقد نظرت فى هذه الجائزة فرأيت أنها لا نعمهم جميعاً ، فعدت إليك لأرجوك لهم ، فقد أحببت أن يعم معروفك .
— تأمر بعشرة أضعاف هذه الجائزة وتحملها إليهم .

— وحمد تلك الألسنة يا سيدى ؟! ألا تحب أن تسمع شكرها جميعاً ، إن لكل منهم لساناً مثل لسانى وجناناً مثل جنانى ، إذا كان قد سرك هذا اللسان وذلك الجنان ، وسوف تجد منهم أكثر مما رأيت منى .
— ترى أن تحضرهم إلى ؟! هنا ؟!

— نعم يا سيدى ، لتسألهم ويحيوا ، وتعطيهم ويشكروا ، ثم يعودوا بشيء يردد بين العرب ، وأنت علم بأثر هذا الثناء .

— حسناً أيها الرسول اللبق ! اذهب وأتني بهم .

وذهب عمرو يبتدر الباب ، وقد بعث الأربطون إلى البواب أن يتركه ، ورءوس عشرة من عظماء العرب وأذكيائهم تراقص أمام عينيه ثم يخالها تطير على حد سيفه غنيمة عظيمة من جند عمرو ، معتقداً أن ذلك الرسول سيقبل بهم إلى حتفهم .

وفُتح الباب ، واخترقه عمرو في جد واهتمام ، أقنع من شاهده أنه عازم على العودة بإخوته وأبناء عمه ، حتى بعد عن الحصن ، ثم التفت إليه ضاحكاً ، ورفع يديه شكراً لله على هذا الإلهام الذي يسعفه في أخرج المواقف ، ورجع إلى أصحابه ونثر الجائزة بينهم ، ووجهوهم تفيض عجباً وعمرو يقص عليهم ما كان ، وطار الخبر إلى المدينة حتى بلغ سمع الخليفة عمر ، فقال في بسمه راضية « عمرو ، والله عمرو ! » عرف القائد العربي بنفسه كل ما خفي عليه ، ورتب خطته ، وزحف بجنده إلى جيش الأربطون في أجنادين ، ودارت الحرب وأخذت سيوف المسلمين ترتفع ثم تنخفض ، ورءوس الرومان ترتفع ثم تنخفض ، حتى أحس الأربطون وجنوده أن لا قبل لهم بعمرو وجيش عمرو ، ففرو في ثمانين ألفاً ملتجئين إلى بيت المقدس في العام الخامس عشر من الهجرة .

وتتقدم عمرو للقضاء على الأربطون وجند الأربطون . وحاصر بيت المقدس أربعة أشهر ، لم تغرب شمس يوم منها دون أن تراق دماء

أو تطير رهوس ، حتى علم المحاصرون أن لا جدوى من الدفاع ، فطلبوا الصلح ، على أن يوقعه الخليفة بنفسه .

وكان عمر بن الخطاب قد أقبل إلى الشام حينما أبطأ الحصار وكتب إلى الأمراء الذين لا يجدون في نواحيهم كبير قتال ، أن يقابلوه في مكان بفلسطين يسمى « الجابية » ، فلما بلغه كتاب عمرو أسرع إليها ، ووافاه البطارقة خاضعين ، وكتب عقد الصلح على تسليم بيت المقدس وشهد عليه عمرو بن العاص ^(١) .

واندفع المسلمون مكبرين مهللين ، ذاكرين ليلة مجيدة دخل فيها هذا المكان أول فاتح لبيت المقدس من المسلمين ، وهو رسولهم الأمين ليلة الإسماء ^(٢) ، وأخذ عمرو يبحث عن الأربطون حتى كبر ظنه أنه قد قتل مع من نالهم سيوف المسلمين ، لكنه عرف أنه فر إلى مصر مقسماً أن يدبر فيها جيشاً عرمرماً يعود به ، فيبدد المسلمين ، ويرجع فلسطين ثم الشام ، فأطرق عمرو يفكر :

(١) وجاء في هذا العقد : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيهم وبريهم وسائر ملتهم ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . . . » .

(٢) الليلة التي أسرى فيها بالرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، وكانت على الأرجح في العام الثالث قبل الهجرة ، وقال تعالى فيها : « سبحان الذي أسرى بده ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

ليست مصر بعيدة عن الشام إلا تفصلهما حدود ولا تحدهما فواصل !
كل منهما متمم للآخر ، إن الشام لا تأمن إلا بمصر ، ولا تأمن مصر
إلا بالشام ، وإذا ترك الأرطيون ولم تدركه قوتنا وهو مذعور ، فقد يعود
بجيش ضخم يكلفنا أشد العناء ! لا بد من فتح مصر لتأمن الشام !
ولكن أيمكن انتزاع موافقة عمر على السير إلى مصر ؟ ! وكيف أقنعه
بذلك الفتح الكبير ؟ ! وكم أطلب لذلك من الجند ؟ إذا طلبت جيشاً
كبيراً فسيفرض عمر حتى لا تشتت قوى المسلمين ، وإذا طلبت جيشاً
صغيراً فسيفرض كذلك خوفاً على المسلمين ، ثم انتفض عمرو بردد في
حزم :

— لكن الأمر جد ، ولا بد من تعقب الأرطيون ونحطيم قوة الروم
الرابضة في مصر ، سوف أقنع عمر ، سوف أسير إلى مصر مهما تكن
العوائق !

درة التاج

أقبل عمرو على الخليفة متطلّق الوجه يغمره سرور دافق . وكان عمر
في مثل هذا السرور لفتح الشام وانتشار نور الإسلام ، وبادر عمرًا قائلا :
— هدأت الشام واطمأن بها الإسلام يا عمرو ؟ !
— لكن رأس الحية لا يزال باقياً يا أمير المؤمنين .

— ومن يكون رأس الحية يا عمرو ؟! أنتخوف على الشام بعد أن ودعها
هرقل الوداع الأخير ؟!

— رأس الحية بمصر يا أمير المؤمنين ، لقد فر الأرطوبون إليها ،
وعلمت أنه يجند بها الجنود ليعود بهم إلى الشام ، مقسما على طرد العرب
ولإزالة الإسلام .

— وهل تظن ذلك خطراً ، ما دمنا يقظين لهذا الجانب يا عمرو ؟!
قوة الحامية وزد اليقظة .

— لا حدود بين الشام ومصر يا أمير المؤمنين ، ولا يستطاع تأمين
الشام إلا بمصر ، ولا تأمين مصر إلا بالشام ، كل منهما مفتاح للأخرى ،
وما دام بمصر جيش للرومان فهي خطر مخوف .

وصمت الخليفة ، ودارت في رأسه أفكار كثيرة ثم التفت إلى عمرو
وقال باسمًا :

— أتريد فتح مصر يا عمرو ؟ إلى أعلم حبك لها منذ دخلتها في
الجاهلية ، وأعلم أنك لا تزال مفتوناً بها فهل تعرف أحوالها اليوم ؟

— أعرفها يا أمير المؤمنين ، وأعرف أنها ترحب بالعرب وتتمنى أن
ينقلها الإسلام الرحيم من مغالب الروم ، أتعرف يا أمير المؤمنين كم يدفع
أهل مصر من الضرائب للرومان ؟ شيء يذيب القلوب ، ويبيث ذوى
النجدة على تخليص مصر من ذلك البلاء ، على الروموس ضريبة يا أمير
المؤمنين ، وعلى الصناعات ضريبة ، وعلى الماشية ضريبة ، وعلى من يسير
في الطريق ضريبة في الدسباب وضريبة في الإياب ، لا يعنى منها النساء

ولا الأطفال ، حتى الموق الذين يسرون إلى قبورهم ، نجى عنهم الضرائب
يا أمير المؤمنين ! ولم يبق إلا النفس المتردد في الصدور ، لم يتيقظوا له وإلا
فرضوا عليه ضريبة وما أفظعها لو تنبها لها يا أمير المؤمنين !

أليس على الإسلام المنفذ أن يدرك هؤلاء ؟
وصمت عمرو وصمت عمر ، ثم هز الخليفة رأسه قائلاً :

— هكذا يا عمرو ؟ كل هذا الظلم ؟

— نعم يا أمير المؤمنين وأقصى من ذلك ، فعلى المصريين إيواء الموظفين
الرومان الذين يمرون بمدنهم وقراهم من المدنيين أو العسكريين ، وأن يلبوا
رغباتهم ، ويقدموا إليهم كل ما يحتاجون . وما أثقل ما يحتاجون يا أمير
المؤمنين ! غذاء وراحة وانتقال ، وكثير غير ذلك إن لم ينالوه طوعاً
نالهوا كرها .

— والأرطوبون وقوات الرومان في مصر يا عمرو ؟

— إن الفزع قد حطم قلوبهم يا أمير المؤمنين ، ولن يشتوا بعدما
رأوا في الشام من الموت الذي يتخطف الأرواح والأجسام .

وصمت عمرو ، وصمت عمر ، ولكنه بعد قليل نظر إلى عمرو وابتم
قائلاً :

— إن مصر تبرى أمام عينيك يا عمرو ، وأظن روعتها تغطي كل
شيء في حزمك وبعد نظرك !

— بل تدفعني بشارة الرسول يا أمير المؤمنين ، لقد أخذ جنود الشام
يرددون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستفتحون مصر » ،

فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمّة ورحماً » ، ألا تذكر ذلك يا أمير المؤمنين ؟

— أذكره يا عمرو ، ولكن الأشياء مرهونة بأوقاتها ، وعندما يحين الوقت سيحقق الله بشارة رسوله وينجز وعده .

— أرى الوقت قد حان يا أمير المؤمنين ، وقد أوشك الإسلام أن يضيء مصر ويقشع ظلام الروم ، وإن كنت أعرف أنها درة تاجهم ، وأنهم سيقاتلون عليها أشد قتال ، لكن المصريين ليسوا معهم ، ولا يستطيع أحد أن يعيش في وسط يبغضه ويتمنى زواله .

بل أؤكد يا أمير المؤمنين أنهم سيكونون معنا حرباً على الرومان ، وعندما ندخل مصر ستجد منها جيشاً قوياً فقد بشر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جيشاً كفيفاً فذلك خير أجناد الأرض » ألا تذكر ذلك يا أمير المؤمنين ؟

— أذكره يا عمرو ، ولكنى أرى التمهّل حتى يقوى الجند ، ويستريحوا من المعارك الطاحنة التي خاضوها في الشام ، تمهّل يا عمرو ، تمهّل .

— إذا صبرنا يا أمير المؤمنين أفاق الرومان من الضربات القاصمة ، فالخزم أن نعالجهم قبل استقرارهم ، لقد علمت الكثير وسمعت الكثير ، وكونت رأياً بعد دراسة ونبحث ، وتأكدت أن مصر ستدخل الإسلام بأهون سعى وأيسر جهد .

— وحصونهم يا عمرو ؟ !

- مهملة معطلة يا أمير المؤمنين ، يقيم فيها الجنود إقامة البائس الخائف
- كم تطلب لذلك الفتح من الجند يا عمرو ؟
- أربعة آلاف يا أمير المؤمنين .
- أربعة آلاف ؟ ! أنتظن هذا العدد كافياً لفتح مصر يا عمرو ؟
- سيكون بإذن الله يا أمير المؤمنين ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والمسلمون يقاتلون بقلوبهم قبل سيوفهم ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً .
- ونظر عمر إلى عمرو فرآه لا يزال متطلق الوجه ثقة وأملاً ، فقال في هدوء :

- على بركة الله ، اذهب يا عمرو ، وسوف أستخير الله ثم أرسل خلفك رسالة ، فإذا وصلتك قبل دخول مصر فارجع ، وإن وصلت بعد دخولك فامض على بركة الله ، وانشر في مصر نور الله ، واجعل درة تاج الرومان درة في عقد الإسلام .

على بركة الله

أشرق الصباح على أربعة آلاف من جند المسلمين يحدون السير إلى مصر ، لا يحدون جديداً عليهم . فالصحراء كصحرائهم التي درحوا في رمالها وتحت سياتها ، والطريق مثل الطريق التي عهدوها ، غير أنها مطروقة

يدل ما فيها على أنها طريق القوافل المترددة بين الشام ومصر ، ولم يغلبوا من يردهم من الروم ولا غير الروم ، وكانت جيوش المسلمين تم فتح بلاد الفرس وبلاد الشام ، لا نجد إلا مقاومة ضئيلة ، بعد ما كسرت القوات الرئيسية ، واستولت على البلاد القوية .

كان الخليفة عمر قد جمع أصحابه ليعتصروهم في هذا الفتح الذي أقدم عليه عمرو بجيشه الصغير ، فرجاء بعضهم أن يتدارك الأمر ، ويعيد عمراً قبل أن يذهب بجيشه فريسة للروم المستعدين في مصر ، وصور بعضهم عمراً في صورة الجريء المغامر الذي يقذف بنفسه في أحضان المخاطر ، الطموح المزدهر الراغب في سعة إدارته ، وألح على عمر أن يستدعيه قبل أن يلج بالمسلمين مزلقاً صعباً نسوة مغتبه .

وما زال هؤلاء وهؤلاء بعمر ، حتى كسب إلى عمرو يأمره بالعودة ، كما اتفقا ، وكان عمرو خائفاً أن يدركه كتاب الخليفة قبل دخول مصر ، فانطلق بالجيش بطرى الصحراء ، ويمد عينيه ويردف سمعه لطارق جديد ، حتى ارتفع النداء ذات صباح يعلن وصول رسول الخليفة بكتاب إلى عمرو ، ولم يكن بينهم وبين مصر إلا اليسير .

كانت فراسة عمرو قد كشفت له ما سيكون عليه خطاب عمر ، فجد السير متشاعلاً عن الرسول حتى بلغ مكاناً في الطريق ، فوقف وألقى بصره حوله ومدّه أمامه ثم استدعى رسول الخليفة . ونادى بعض سكان هذا المكان وسألهم عن هذا الموضع ، وهل هو من مصر ؟ فأخبروه أنه الآن

داخل مصر فالتفت عمرو إلى رسول الخليفة ثم وجه حديثه إلى سكان ذلك المكان قائلا :

— إذن نحن الآن داخل مصر ؟

— نعم یا سیدی داخل مصر ، داخل بلاد الروم .

واطمأن عمرو إلى أن رسول الخليفة قد سمع بأذنيه هذه الشهادة ،
ثم مد يده وتناول رسالة عمر مبتسماً وقراها ، ثم أعاد قراءتها على جيشه
فنظر بعضهم إلى بعض وقراء عمرو في عيونهم الرقص ثم صاح :
- أعرنتم أن هذا المكان من مصر ؟

— عرفنا وعلمنا !

كانت أصواتهم ممتلئة بالحماسة والثقة ، تكاد تندفع وحدها في الطريق لتسبق الجيش ، فاشتد عزم عمرو ونظر إلى هذه الآلاف الأربعة ، فكبرت في عينيه ، حتى خالها أربعين ألفاً ، ثم قال في ابتسامة راضية : — إن أمير المؤمنين عهد إلى أن أسير إلى مصر ، وأمرني إذا لحقني كتابه بالعودة قبل دخولي أن أعود ، وإن لحقني وقد دخلت فلأمض على بركة الله .

فارتفعت الحناجر في قوة :

— من مصر ، دخلنا مصر ، على بركة الله ، على بركة الله .

وغمر القائد جيشه المتوثب بنظرة الرضا ؛ ثم صاح في عزم :

— على بركة الله ، فالنصر لكم ، وعون الله معكم ، وبشارة الرسول ستتحقق على أيديكم .

وانطلق الجيش يسابق الزمن مخترقاً رمال سيناء ، جاداً في الوصول إلى هدفه ، حتى لاح من بعيد حصون وقلاع ، فأعدت العدة ، وأخرجت السيوف من أغمادها ، وتنادى الجيش بهجمة تزيل تلك الحصون ، واشتدت سرعة الجيش فلاحت هذه القلاع ، كأنها هي التي تجدد السير لترتمي بين ظلمات السيوف يائسة مستسلمة ، وكانت هذه هي حصون العريش^(١) التي لم تلبث أن انهارت أمام المسلمين ، فدخلوها مكبرين ،

(١) كانت أول بلاد مصر من ناحية الشام على ساحل البحر الرومي .

بعد ما أدوا صلاة عيد الأضحى ، فى العاشر من ذى الحجة ، من العام الثامن عشر للهجرة^(١) .

ولم يقف المسلمون حولها كثيراً ، فقد علموا أن الروم قد تجمعوا لهم فى مواطن أشد تحصيناً ، وأقوى على الدفاع ، فغادروا العريش وما حولها من حراج النخيل ، متجهين إلى الغرب على بعد من شاطئ البحر الأبيض ، يجتازون صحراء جرداء ، فى بعض أماكن منها قرى ومواطن مياه ، وليس فيها ما يثير اهتمام الجيش ، فالصحراء مثل صحرائهم ، والنبات والأشواك المنتشرة فى وسط الرمال الصفراء هنا وهناك ، مثل تلك النباتات والأشواك التى عهدوها فى بلادهم ، وقطان هذه البقاع ، يكادون يكونون عرباً مثلهم ، لكن الدهشة التى ملكت قلوبهم أن تكون هذه مصر بلاد النيل ذات الخير الوفير .

وارتمت العيون فى الأفق فلاححت حصون أخرى ، ودبت الحماسة فى الجيش ، وانطلقت التكبيرات تهرز الأرجاء ، واختلطت بالغبار المنعقد فوق الرؤوس ، وأسرعت هذه الحصون تقترب كما اقتربت حصون العريش ، حتى انتهوا إليها ، فوجدوها قوية محكمة فيها حركة وحياة ، ولها ميناء على البحر الأبيض ، تستطيع أن تعتمد منه على السفن فتصمد طويلاً .

ورأوا جدولاً ينساب إليها بماء عذب مندفق ، ماؤه أحلى من كل ماء ذاقوه من قبل ، وأمر القائد فالتف الجيش حول هذا الموقع الذى يسمى

«الفرما»^(١) وكانت حاميته قد دخلت الحصون وأغلقت أبوابها واستعدت لملاقاة جيش المسلمين .

وقف المسلمون في نقطة ينتظرون أمر القائد ، وكانوا قد شربوا من ماء الجدول ، وأغرتهم حلاوته فنهلوا وشبعوا . لكنهم أحسوا بدبيب من القوة يدب في أوصالهم ، وتلفت بعضهم إلى بعض يتساءلون :
— أشربنا مسكراً ونحن لا ندرى ؟ ! ما هذا الدبيب القوي الذي يدب في أوصالنا ؟ !

ثم أسرعوا إلى عمرو يسألونه ، فابتسم قائلاً :
— ماء النيل ! ماء النيل يبعث القوة ويثير الحماسة .
— ماء النيل يبعث هذه القوة كلها ؟ !
— إذا امتزج بالإيمان ، فأكثروا من شربه ، واستعدوا للدبيب أقوى حيناً تشربون من النهر الكبير .
— أكبر من هذا ؟ !

— أكبر من هذا ، وما هذا إلا جدول صغير تسال من النيل عبر الصحراء ، أما النهر فماء واسع متدافع شديد الروعة ، متصلون إليه بالصبر واليقين ، وسيعينكم ما شربتم من هذا الجدول .

(١) كانت على ساحل بحر الروم في الشرق ، تبعد عنه بقدر ميلين قرب بور سعيد الآن ، وكان لها ميناء عامر ، يصل إليها فرع من النيل يسمى الفرع الطينى لأن اسمها كان «الطينة» ، وكانت زمن الفراعنة حصن مصر من الشرق ، وتعرف الآن بتل الفرما .

ومضى شهر وقذائف الحصن تنتثر في جوانبه ، والروم يخرجون فيلقون سيوف المسلمين الملهبة ، ثم يفرون إلى حصنهم ، حتى خارت قواهم ، ووجدوا ألا مفر من التسليم .

وأشرق ضوء الصباح الهادئ على أبواب الحصن ، وقد تفتحت مستسلمة ، فاندفع فيها جيش الإسلام يلفه التكبير والتهليل والحمد ، وهرع المسلمون إلى الجدل يعبون منه ويمزجون ماءه بإيمانهم ، ثم استأنفوا المسير من الفرما ، تردد ألسنتهم آيات القرآن وبشارة الرسول ، وعمرو أمامهم ليثاً جسوراً ، يقوى العزائم ويبشر بالنصر القريب ، حتى باغوا بلبيس^(١) ، وكان الأرطبون قد استعد فيها للملاقاة المسلمين ، عتيمياً بحصنها المنيع فالتفت المسلمون حوله ، وضيقوا عليه الخناق ، وأذاقوا من خراج منه طعم الموت ، حتى يش المحاصرون ، وفتحوا الأبواب يطلبون الأمان .

شد المسلمون على مقابض سيوفهم ، وهبوا في عاصفة من التكبير والتهليل إلى تلك الأبواب المفتحة ، وأمامهم عمرو مرفوع السيف باسم الثغر ، يعلن دخول « بلبيس » في أحضان الإسلام ، ويبشر المسلمين بالفتح المبين ، فقد أصبحوا على مسيرة يوم واحد من رأس الدلتا ، حيث تشب المعركة الفاصلة بين قوة الحق وعدة الباطل .

(١) بينها وبين القسطنطين (مصر القديمة اليوم) عشرة فراسخ ، على الطريق من مصر إلى الشام .

بين فكي الأسد

يوم واحد من رأس الدلتا ! يوم واحد من النيل ! النصر للحق
والخذلان للباطل ! . . .

كانت هذه الهتافات تدوى في وسط الصحراء ، تشهد الله على ما في
قلوب المؤمنين من الإخلاص لدينه ، والعمل لإعلاء كلمته ، تخرج
من أفواه المسلمين قوية حارة ، فلتقى بظبات السيوف المتوهجة في أشعة
الشمس فتزيد بريقاً ورونقاً ، حتى بلغوا مكاناً على مقربة من النيل في
حدود الصحراء يسمى « عين شمس » فاتخذوه عمرو قاعدة له .

كان الروم يقلبون أكفهم عجباً من هذا الجيش وقائده ، وقد أجمعوا
أمرهم على أن يضربوه الضربة القاصمة إذا تقدم إلى النيل ، وكانت كبرى
حامياتهم في حصن منيع على النيل يسمى حصن بابليون^(١) ، فقرروا أن
يقفوا لعمرو في مكان حصين على النيل قبل بابليون يسمى « أم دنين » ،
وهو مكان تحميه الجيوش من البر ، وتحرسه السفن من النيل .

رتب قائد الروم دفاعه ، ونظر إلى جيوشه في البر وفي الماء وقهقهه

(١) موضعه النسطاط وكان هذا الموضع قبل الفتح فضاء ومزارع بين النيل والجبل
الشرق المعروف بجبل المقطم ، يقوم فيه حصن بابليون الذي يعرف بمضه بقصر الشمع ، كان
به حامية الروم ، ويترنل به الحاكم إذا أقبل من الإسكندرية التي كانت هي العاصمة في ذلك
الوقت فيقيم به ما يشاء ، ثم يعود ، وكان مطلا على النيل تصل السفن في النيل إلى باب القرب
الذي كان يعرف بباب الحديد .

قهقهة عالية ، وأوى عنقه فى كبرياء ثم صاح فى زهو :

— عمرو ! أين عمرو ؟ ! أياظن كل لقاء حرباً ؟ ! هنا سيدفن !
فى هذا الماء ستلقى جث رجاله ! سوف تسجل أم دين مالم تسجله أجنادين
وبليس ! .

ثم علت قهقهته وردد مرة أخرى :

— عمرو ! وأين هذا العمرو ؟ !

وبعد أن اطمأن القائد العربى إلى قاعدته فى عين شمس ، استأنف
مسيره حتى بلغ « أم دين » ، ونظر إلى حصونها وقلاعها ، ثم خاطب
نفسه :

— يا لله ! حصونها منيعة وأسوارها محكمة ! والسفن تحرس جانب
النيل فكيف العمل ؟ !

ولم يطل الوقوف بعمرو . وتقدم إليه جيش الرومان ، وتحركت
سيوف العرب ، وعرفت طريقها إلى قاوب أعدائها وهاماتهم ، حتى
أحس الروم بحجراتها ، وتذكروا ما سمعوه عن معونة السماء لها ، فزلوا
الأدبار واحتموا بالحصن ، ثم عاودوا الكرة مرة بعد مرة ، فأحس عمرو
بضرورة المدد ، فكتب إلى الخليفة يستمده ليتم الفتح .

انقضى اليوم إثر اليوم ، والشهر إثر الشهر وعمرو يصد هجمات
الروم ، ويرقب الطريق ليرى طلائع المدد الذى بعث به الخليفة ، فلا يرى
مدداً ولا من يبشر بمدد .

ونظر إلى قوة الروم الكبيرة وأعدادهم الكثيرة وجيشه القليل ،

ولكنه لم يهن ولم يضعف . واستمد من عزيمته مدداً . ومن روحه جيشاً
عمرماً ، وآلى أن يقتحم حصن أم دنين ، ونفخ من روحه في قابض أصحابه
وتقدم أمامهم ، فالتفت سيوف المسلمين برقاب الروم . وواصلت اقتلاع
رءوسهم يوماً وليلة حتى تركوا سفنهم وعدتهم ، وأسرعوا إلى آخر حصن
من حصونهم تاركين أم دنين للمسلمين يدخلونها مكبرين مهللين ،
فرحين بما آتاهم الله من فضله ، يستعدون لاقتحام الملاذ الأخير .

كان حصن « بابلديون » متين البناء ، ذا أسوار شاهقة ، يحيط به
خندق واسع يحف به النيل من الغرب ، قد وضع الرومان فيه أسلاكاً
من الحديد كالشوك تنشب في كل رجل أو حافر يقع عليها .
ونظر عمرو إلى ماء النيل فرآه مائلاً إلى الحمرة ، ووجدته يزيد
كل يوم حمرة تشتد يوماً بعد يوم ، فعلم أن مصر مقادمة على الفيضان ،
وخاف أن يملأ الماء الخندق فيعوق اقتحام الحصن ، وأن يفيض في الرع
والخيلجان فيحصرهم في وسط مصر ، وتصبح قوة المسامين مطوقة في هذه
البلاد الواسعة . وود لو هب له اقتحام هذا الحصن قبل باوغ الفيضان
أقصاه . وكان الروم قد دخلوا الحصن ومعهم أكابر القبط ورؤسائهم ،
والمقوقس عظيمهم ، فأحكم عمرو الحصار ، وشدد قبضته على أقوى
معقل من معاقل الروم ، ثم أخذ يفكر فيما يصنع حتى ينحسر هذا الماء .
ولم يطل التفكير بعمرو ، فقد خيل إلى قائد الروم أن سباغت العرب
ويقتضى عليهم ، فجمع عشرين ألفاً من الجنود المدربين ، وأحكم الخطة

لتكون هذه الموقعة نهاية عمرو وحيل عمرو .

وتأكد الجنود أن درة التاج معلقة على هذه الموقعة ، فلما كسبوها ، وإما طارت من أيديهم ، وألقوا بعيداً عن مصر ونيلها إذا هي لم البقاء ، واختار القائد أن يهاجم العرب في قاعدتهم بعين شمس .

كانت صورة مصر البديعة وخيراتها العظيمة تترأى أمام جنود الرومان ، ثم يتخيّلون أن العرب قد انتزعوها من أيديهم فتثور حماسهم ويشتد عزمهم ، وكانت هذه الصورة الحميلة تترأى أمام المسلمين ويتخيّلون أنهم ينتزعونها من أيدي الظالمين ، وأن ثواب الله سيغدق عليهم ، جزاء إنقاذها ونجدة . فتشتد عزائمهم وتثور حماسهم كذلك .

وسار الرومان إلى الجيش العربي في عين شمس ، والآمال تضحك في قلوبهم ، موقنين بالنصر على هذه الفئة القليلة التي لن تقف لهذا الجيش الذي يسد الأفق ولو حرسها الشياطين .

كان عمرو قد علم ما بينته الروم ، ونظر إلى جيشه الصغير ، ثم أطرق يفكر في خطة يقابل بها ذلك الجيش الضخم .

لا مدد بزيد العدد ، ولا سلاح يضمه إلى السلاح ، ولا شيء إلا عون الله ، والخطة الحكيمة التي تكفل لبضعة آلاف أن تزم عشرين ألفاً .

وأسرعت الخطة تملأ فؤاد عمرو ، فدعا أصحابه ، وأمر بها إليهم ، ثم أسرعوا خفاً إلى خيولهم ، وعلى شفاههم بسمات مشرقة تبشر بالنصر

للفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الباغية .

والتقى الجيشان في نصف المسافة بين عين شمس وبابلون ، وألقى الروم بكل قوتهم في وجه المسلمين ، فتهقرو المسلمون قليلا وتقدم الرومان قليلا ، وقهقهه القائد كما يفهمه الوحش الذي وثق من الفريسة ، واشتد به الزهر . وقوى تهقرو المسلمين قلوب الرومان فزاد انحذارهم على جيش العرب يزأرون ويستعجلون النصر .

لكن صراخاً عالياً واستغاثة حزينة أخذت تبعث من ميمنة الروم ، والتفت القائد إلى هذا الجناح فوجده يتحطم ووجد العرب قد انقضوا عليه من الشرق كأن الجبل قد انشق عنهم فانحدروا صاعقة ماحقة ، نقصت نظام الجيش وأشاعت فيه اضطراباً شديداً ، وكر عمرو عليهم من أمامهم ، فلم يحدوا إلا الغرب يلودون به قراراً نحو أم دين .

لكن الأرض قد انشقت عن قوة أخرى من المسلمين أطبقت عليهم من الغرب ، وأصبحوا بين ماضى الأسد فريسة سائغة تطأها أنيابه ، ويلوكها لسانه كما يشاء ، ولم يفلت إلا قليل كانوا في المؤخرة ، فألقوا بأنفسهم في النيل سابحين لا يدرون أين يذهبون ، وأمد لبعضهم في الأجل فاستطاع أن يفر إلى حصن بابلون ، ويعلق عليه الأبواب ويتحسس مغاليقها ، والجزع يدب من قلبه إلى قلوب من بالحصن ، فيضاعفون إحكام الأبواب حتى لا تتخطفهم تلك الشياطين .

كان عمرو قد بنى خطته على أن يقابل الروم ببعض جيشه ، ويضع

كثيلاً قوياً في الجبل من الشرق ، وكثيلاً آخر عند أم دين من المغرب حتى
يندفع الروم ، فتطبق عليهم كاشته القوية ، وسيق الروم إلى فحّه ، وأعان
الله الفئة القليلة فهزمت الفئة الكثيرة بإذنه .

وتفقد عمرو جيشه فلم يجده قد نقص إلا القليل ، ونظر إلى ما سبق
إليه غنيمة من السلاح والعدة ثم رفع يديه إلى السماء ، وتعالّت أصوات
المسلمين بحمد الله ورجائه أن يعينهم على اقتحام الحصن المنيع ،
حتى يطهروا مصر من الروم وأدران الروم ، ثم استأنفوا المسير إلى
حصن بابلين .

المفاوضة

التف المسلمون مرة أخرى حول الحصن المنيع ، وكان به المتوقس
عظيم القبط مع الروم ، وانقضى شهر بعد شهر ، وجاء المدد يضيف
إلى جيش عمرو أربعة آلاف من صناديد المسلمين ، فيهم أربعة كل
منهم بألف .

ورأى المتوقس ما سينتهى إليه ذلك الحصار بعد هزائم الروم ،
فخرج من باب الحصن الغربي وأقام بالجزيرة مع نفر من المصريين ،
وعزم على أن ينتهي مع المسلمين إلى شيء قبل فوات الفرصة ، وأرسل
رسله بكتاب إلى عمرو .

ما هذا ؟ وماذا يضير لو أقبل الروم بكل ما يملكون ؟ ! وماذا يهمنا من النيل وفيضانه ؟ ! أيجعلنا ذلك الفيضان أسرى في يده كما يقول ؟ ! أهددنا المقوقس ؟ ! ألم يعلم إلى اليوم سيوف هذه الفئة القليلة ؟ ! إنه لم يقف لها حتى تتحدث إليه بما تحدثت لغيره !

ولم يجب عمرو على الرسالة ، ولم يأذن للرسل بالعودة ، فظلوا يومين بين العرب ، ثم دعاهم وسألهم رده وأذن لهم ، وكان المقوقس قلقاً لإبطائهم ، قد حدثته نفسه بأن عمراً قتلهم ، ردّاً على تهديده وحارفيها يصنع إن كان عمرو قد فعل ذلك ، لكن الرسل قد عادت إليه عزيزة كريمة وقدمت إليه رد عمرو ففضضه وتلاه مرة بعد مرة وأخذ يمسس بما فيه :

— ثلاث خصال تختارون إحداها : الدخول في الإسلام ، فتكونون إخواناً للمسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ، وإلا فالجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وعلى المسلمين حمايتكم والذود عنكم . وترككم أحراراً في أموالكم وأولادكم وأرضكم وأعمالكم ، وإلا فالحرب والجهاد حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ثم التفت المقوقس إلى رسله وسأله :

— كيف رأيتم هؤلاء المسلمين ؟

— رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ، جلوسهم على التراب ، وأكلهم على

ركبهم ، أميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضعهم ، ولا السيد فيهم من العبد .

— غريب شأن هؤلاء القوم ! لو استقبل هؤلاء الجبال لأزالوها ، لا بد من صلحهم وهم محصورون بالفيضان ، وإلا فلن يجيبوا بعده ، ارجعوا إلى عمرو لينتدب من يفاوضنا ، فربما وصلنا إلى حل .

ودخل على المقوقس جماعة من المسلمين الذين انتدبهم عمرو ليفاوضوه كما أراد ، يتقدمهم رجل أسود شديد السواد ، طويل فارع الطول . أقدامهم ثابتة ، وقاماتهم مستقيمة ، وعيونهم ممتلئة بالخدر ، فارتفع صوت المقوقس في اضطراب :

— نحوا غنى هذا الأسود الطويل ، وقدموا غيره .

-- ولكنه أميرنا والمقدم علينا !

-- أما وجدتم غير هذا ليكون أميراً عليكم ؟ !

— هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا ، ونحن جميعاً

نرجع إلى رأيه !

— لن أستطيع الحديث معه ، فاختاروا غيره !

وارتفعت أصوات المسلمين حتى كادت تخلع قلب المقوقس :

— لكن الأمير عمراً هو الذى اختاره ، وجعل له الأمر دوننا ، وأمرنا

ألا نخالفه !

— وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وكان ينبغي أن

يكون دونكم ؟ ! إنه يخيفني ! أتصغيراً لشأني صنع عمرو ذلك ؟ !

— الإسلام لا يفرق بين الأسود والأبيض أيها المقوقس ، كل الناس أمام الإسلام سواء ، لا فضل إلا بالتقوى ، فإما قبلت أن تحذنه ، وإما عدنا من حيث أتينا !

ولم يجد المقوقس بدءاً من الحديث إلى عبادة بن الصامت ، وأشار إليه لبدأ ، فابتسم عبادة ابتسامة خلعت قلب المقوقس وأصحابه ثم قال ساخراً :

— أنخاف سوادى أيها المقوقس ؟ ! فماذا تصنع إذا التقيت بجيش المسلمين وفيهم ألف في مثل سوادى وأشد ؟ ! بل هم في شباب وفتوة ، أما أنا فقد فارقت الشباب !

اسمع أيها المقوقس ، إننا لم نقصد مصر ولا غيرها إلا لرضوان الله ونشر دينه ، ولا حاجة لنا بالدنيا ونعيمها الزائل وإن كان الله قد أحل لنا ما غنمنا ، لا يبالي أحدنا أن تكون له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما ، لأن غايته من الدنيا أكلة يسد بها جوعته ، وشماة يلتحفها ، وإن كان له قنطار من الذهب أنفقه في سبيل الله .

وسمع المقوقس حديث عبادة ، ثم زفر زفرة حارة ، وتكلف ابتسامة باهتة ثم قال :

— إننا نعرف تقواكم وانصرافكم عن الدنيا ، وأن صلاحكم قد أعانكم على ما بلغتم ، لكنكم لا تعلمون ما ينبغي لكم القدر في بلادنا !

— خيراً وبركة إن شاء الله ! اطلّعت الغيب أيها المقوقس ، وعرفت ما يأتي به القدر ؟ !

— بل أخاف عليكم شرّاً أعلمه ، ولا أريد لأمثالكم من الصالحين أن يقعوا فريسة سهلة في أيدي الروم !

— الروم ؟ ! ومن الذين هزمتهم في كل موقعة حتى اليوم ؟ !
أفي دينك أن الله يعين الظالمين ويهزم الصالحين ؟ !

— ولكنهم أعدوا لكم ما لا يحصى من الصناديد الذين لا يبالون بالموت ، إني خائف عليكم وأنتم في قلة عددكم أن تقعوا في يد من لا يرحمون .

— خائف علينا من الروم ، أم خائف على الروم منا ؟ !

— خائف أن تلتقي بكم تلك الجحافل فتمحوكم في ساعة من نهار ، ولو قدر لكم الصبر فإن مدونتكم ستنفذ ، لأنني أعلم ما أنتم فيه من ضيق وشدة ، ولديّ حل يرضيكم . الصلح يا عبادة !

— على الأولى أم على الثانية ؟

— لا على واحدة منهما .

— إذن فلا نتحدث ، فليس لدينا إلا واحدة منهما أو الثالثة ،

أعرفتها جميعاً ؟ الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب !

— ولكن واحدة أخرى خير من هذه الثلاثة .

— لا شيء خير من هذه الثلاثة ، فكر حتى نعود إلى عمرو .

— واحدة ترضيكم ، وإني واثق أنها ستسرك وتسرع عمراً !
 وهم عبادة بالعودة ، فأخذ المقوقس يرجوه أن يستمع له حتى يعرف
 هذه الواحدة . فلعلها تكون الشافية ، فوقف عبادة وقال والغضب يملأ
 وجهه :

— تحدث ، وإن كنت لا أقبل إلا واحدة من الثلاثة .
 — نتصالح يا عبادة ، نتصالح على أن نفرض لكل رجل منكم
 دينارين .

— ثم ، أيها المقوقس ؟ !

— ثم نفرض لأميركم مائة دينار !

— ثم ؟ !

— ثم نفرض لخليفتك ألف دينار !

— ثم ؟ !

— ثم تقبضون هذا المال كله مرة واحدة ، وتنصرفون إلى بلادكم
 قبل أن يغشاكم من الروم ما لا قوة لكم به ، فتخسروا المال وتخسروا
 الأنفس !

وصمت عبادة برهة ثم صاح صيحة عدا لها قاب المقوقس في صدره
 وهذر قائلاً :

— أتخدعنا أيها الرجل أم نخدع نفسك ؟ ! لقد نسيت ! ألم أحدثك
 عن المسلمين وزهدهم في الدنيا ؟ ! ألا تعلم أن الشهادة أول مطلب لنا

من هذه الحياة ؟ ! أين هذه الجموع التي نخوفنا بها ؟ ! ليتها تكون كما زعمت فنعجل إلى الله ، وما من رجل فينا إلا وهو يدعوره صباحه ومساءه أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده إلى أرضه ولا إلى بلده ولا إلى أهله وولده ، لسنا في ضيق أيها المقوقس ، وإن ما نحن فيه لأوسع السعة ، فلا نتخذه نفسك ، فليس أمامك إلا واحدة من الثلاث ، فانظر أيها أصلح لك ، ولا تركب الشطط ، فالقلوب العامرة بالإيمان لا تتخذع .

الفتح المبين

استدار عبادة بن الصامت ، واستدار أصحابه خلعه ، وتركوا المقوقس ومن معه في ذهول ، ولم يكن عمرو في حاجة لأن يقص عليه عبادة ما دار بينه وبين المقوقس ، فقد أدرك ما أراده ، وأدرك ما سينتهى إليه أمره .

أما المقوقس فتيقظ من ذهوله وجعل ينصح بصلح المسلمين على الحزبية ، إذ لا طاقة لهم بصبرهم وجهادهم ، ثم خنقته العبرة ، فأطبق جفنيه وأمسك قليلاً ثم عاد يذكر أصحابه بالرومان وعسف الرومان ، ويعيد عليهم تلك الصور القائمة لأيامهم السوداء ، تلك الأيام البائسة التي سلبت فيها الأقوات ، وأريق الدماء ومزق الأبرياء .

فحركت كلماته أوتار القلوب المجروحة ، وبدأت أمام أعينهم صور القتلى والجرحى والحرق ، وصور الأعراض التي فتك بها أولئك

الظالمون ، فوافقوا على الصلح ، وأسرع المقوقس إلى عمرو وعقد معه صلحاً عنه وعن المصريين .

أخذت الرومان العزة بالإثم فثاروا على ما أبرمه المقوقس ، ورفضوا الإذعان ، وتنادوا بالمقاومة والثبات حتى يأتى المدد فيلقى بعمر ووجيشه إلى وادى الفناء ، وطال الزمن وتبع الشهر الشهر ، والنيل يكف المسلمين عن الحصن ، وأمل الحامية يدفعها إلى المناوشة مع ما تعانيه من جوع فأنك ، ومرض حاصد ، حتى انقضت سبعة أشهر ، وانحسر ماء النيل وجف الخندق ودار المسلمون يبحثون عن المنفذ إلى قلوب الرومان .

وجلس عمرو وأصحابه يقلبون الرأى ، ويمدون أعينهم إلى الحصن ثم يعيدونها بائسة من اقتحامه ، ويستعرضون ما غنموه من أدوات الحصار ، فيجدونها عاجزة عن أن تنال منه ، وما زالوا يقلبون الأفكار حتى برق الأمل في عين القائد وصاح بهم :

— لا فائدة من هذه العدد ، لابد أن تتقدم القلوب لتفسح الطريق ،

لابد أن يتطوع بعضنا ويهب نفسه لله .

وارتفعت جميع الأصوات في حماسة دافقة :

— كلنا قد وهبنا أنفسنا لله .

لكن صوتاً منها أراد أن يسبق إلى اللجنة ، فهب صاحبه الزبير بن العوام ، يرجو القوم أن يدعوا له هذا الاستشهاد لأنه في شوق إلى لقاء الله ، وإن كان الأمل يملأ فؤاده بأن الله سيفتح الحصن على يديه .

ووضعت الخطة على أن يصعد هذا الندائي الجسور في سلم إلى رأس الحصن حتى يبلغه فيكبر ، فإذا سمعه المسلمون كبروا تكبيرة واحدة تهر الأرجاء وترزّل أفندة الحامية .

وصعد الندائي وبلغ رأس الحصن وكبر ، فعالت تكبيرات المسلمين وظلت الحامية أنها صادرة من جوف الحصن وأن المسلمين قد اقتحموه ففرت إلى مخابئها تاركة الأبواب .

واستبق المسلمون السلم وانضموا إلى الزبير ، ثم هبطوا إلى الأبواب التي غادرها حراسها الخائفون وفتحوها ، فانساب المسلمون إلى داخل الحصن يبحثون عن رموس الروم ، ولم يجد قائد الروم أمام هذا الحول الذي هبط عليه ، إلا أن يمد يده إلى عمرو ليرد الموت عن بقى من جيشه ، فانبعث صوت قائد المسلمين يأمر بالكف ، مردداً قول الله تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ويأمر قائد الروم أن يفرغ من الرحيل عن الحصن في ثلاثة أيام .

وفرغ الروم في يومين ولم يتركوا الحصن ، لأنهم أعدوا اليوم الثالث ليقطعوا فيه أبدى الأقباط الذين كانوا معهم في الحصن ويبتروا أرجلهم ، ويشوهوا وجوههم حتى يتركوهم في حالة لا يشمتون فيها بأعدائهم الروم ، الذين أذاقوهم العذاب مئات السنين ، لكن عمراً تقدم ليكف الأبدى الظالمة ويدفعها خارج الحصن ، ثم جعل فيه حامية ، وضم إليها السفن عند الباب الغربي المشرف على النيل حينذاك ، ثم استعد ليتم الفتح بالاستيلاء على عاصمة البلاد الواقعة على بحر الروم في شمال مصر .

الجللاء

— ليس هنا أحد يا عمرو ! ليس هنا إلا يمامة تحتضن بيضها !

— هذه هي جارى الذى لجأ إلى فسطاطى ، فاتركوها آمنة حتى
نعود من الإسكندرية !

وقوضت الخيام إلا خيمة القائد التى تركها لجاره ، وسار الجيش
يشق شمال مصر إلى العاصمة المحصنة من البر والبحر ، ولم يستطع حصن
من الحصون فى الطريق أن يثبت له ، ولم يستطع جيش الرومان أن يقف
للعرب إلا ريثما يدبر للفرار ، حتى لاحت أسوار الإسكندرية بعد اثنين
وعشرين يوماً ، فمسكر العرب بعيداً عن رمى قذائف الحصن ، ووقف
القائد بقيس الأبعاد ويدبر الخطة ، ووقف قائد الروم بين جنده يحمسهم
قائلاً :

« إنها المعركة الأخيرة أيها الرومان ، فاثبتوا وعلموا عمراً ذلك الدرس
الذى لم يستطع غيركم أن يعلمه إياه » .

حركت كلمات قائد الرومان قلوب حاميته ففتحوا الأبواب والتحموا
بالمسلمين ، لكنهم أحسوا بعد قليل براءتهم تطير ، وأفتدتهم تشق ،
فنكسوا على أعقابهم ، وأغلقوا عليهم أبواب الحصن ، حتى إذا ذهب

عنهم الروح واطمأنوا خلف الأسوار ، خيل إليهم أنهم قادرون على أخذ العرب ، فأقدموا ليدوقوا البلاء ثم يولوا الأدبار .

ومضى أربعة أشهر والمسلمون والروم في شد وجذب ، والحصن يقف بين سيوف المسلمين ورقاب الروم إذا جدد الجدد ، فاستبطن عمرو هذه المدة ، وعزم على اقتحام الحصن ، ودبر مع أصحابه خطة الهجوم .

اندفعت أفواج من المسلمين ذات صباح إلى ذلك الحصن ، تحت وأبل من القذائف الثقيلة ، واندفع آخرون في البحر ، ساجدين بين السفن الرابضة حول المدينة ، وأطبقوا على الروم من البر والبحر ، وأخذت رchy المسلمين تعصر قلوب هذه الحامية الباقية في أرض مصر ، فخارت قواها ، وأسرع قائدوها إلى عمرو يستغيث صائحاً :

— سرحل يا عمرو ! أوقف القتل وافرض ما تشاء !

فأوقف عمرو سيوف المسلمين وهي تقطر من دماء الرومان ، ورضى أن يمنحهم أحد عشر شهراً ، يقطعون فيها آخر خيط يربطهم بمصر ، ويمزقون كل خاطر يحدّثهم بالعودة إليها^(١) .

وتحرّكت سفن الرومان بعد قليل تجلو بهم سفينة بعد سفينة ، حتى نشرت الأخيرة أشرعتها ، ثم توقفت قليلاً ، ونظر من فيها إلى مئات

(١) اتفق الطرفان في أواخر عام ٦٤١ م . ٢١٠ هـ على « أن تخرج حامية الإسكندرية الرومانية بمناعبها وأموالها ، خلال أحد عشر شهراً ، وأن تتاح للمسيحيين عبادتهم وتصلان مساكنهم وألا يتدخل أحد في دينهم . . . » .

السنين التي طالما حملت فيها سفن الرومان خيرات مصر ، لكنها أحست بعيون العرب تنظر إليها في قوة ، فاعتدلت ثم توارت عن الأنظار .

وجلس الفاتح العربي على شاطئ البحر الأبيض مع صاحبه ، ومد نظره في الأمواج السابحة بيد القدرة ، يلاحق بعضها بعضاً ، ويرتطم بعضها ببعض ، فتعلو وتنبط ، وسبح في تفكير عميق ثم انتبه هامساً :

— حطمتها الرومان ويصلحها العرب ! رسالة لا بد أن يقوم بها الإسلام ، ولكن بعد أن يتم الجلاء ؟ !

— أبعد ما ابتلع البحر جيش الرومان جلاء يا عمرو ؟ !

— كنت أتبع ماء البحر إلى الغرب يا عدنان .

— حتى البحر المحيط ^(١) يا عمرو ؟ !

— ليت يا عدنان ! لا بد من إجلاء الروم عن حدود مصر ، حتى تأمن الغرب كما أمنت الشرق ، ثم داخل مصر يا عدنان ! ألا تتوقع أن يكون في البلاد جيوب للروم ؟ !

إن الغاصبين يشكلون الخائنين من أبناء البلاد كما يشتهون ، ويمكنونهم من رؤوس قومهم ليظلموا الشعوب بأيديهم ، أنظن هؤلاء الذين كانوا يحملون ظلم الرومان إلى قومهم ، سينقادون إلينا بسهولة ؟ !

(١) المحيط الأطلسي .

إن أماننا جهاداً في الداخل وجهاداً في الخارج ، قبل جهاد العمران
يا عدنان !

وأصبحت جيوش المسلمين سابحة في جوانب مصر ، وأصبح عمرو
يجيش منها يخترق الصحراء حتى بلغ برقة ^(١) على حدود مصر من الغرب
فدانت له ، ثم استأنف السير حتى نزل طرابلس ^(٢) في الغرب .

وشهد العام الثاني والعشرون للهجرة جيوش المسلمين ، ملتفة حول
حصون طرابلس شهراً كاملاً حتى فتحها ، كما فتحت غيرها من الحصون
المنبعة ، ثم عاد عمرو إلى مصر لبدأ جهاد العمران ، ويبعث الحياة في
مصر التي تركها الرومان شبحاً محطماً يستحق الرثاء .

جهاد العمران

تفتحت عيون المصريين على جمال بلادهم ، بعدما غشى عليها ظلم
الرومان ، فرأوا الشمس مشرقة والقمر متلألئاً والنجوم لامعة ، وأحسوا
بعبير الأزهار يعطر جوانب الوادي ، وأخذوا يمدون أنوفهم وينشقون هذا
العبير في هدوء ، شهيقاً وزفيراً منتظماً ، لا تسرع به فزعة ولا تعكره هجمة ،
ويعمدون أرجلهم في الطرق ، ثم يسرون إذا أشرق النهار وإذا أظلم الليل ،

(١) كان بينها وبين الإسكندرية مسيرة شهر .

(٢) كانت ليبيا مضافة إلى مصر في ذلك الوقت .

يملثون أعينهم من حتمولهم ومتاجرهم ، ويرفعون أصواتهم بدعواتهم وصلواتهم ، مطمئنين في جناح الإسلام الرحيم الذى يحترم العهود ويقدم الموائيق .
 وشغل النيل أنظار المسلمين فلاحظوه وهو يفيض ويغمر الأرض ويحجز ماؤه بين القرى ، فلا تتصل إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب ، ثم يشتد فيضانه حتى يتكامل ، ثم يأخذ في الانخفاض حتى يعود كما بدأ ، فيخرج المصريون ليحرثوا أعالي الأرض وأسافلها ، يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا ظهر النبات سقاه الندى من فوقه ، وغذاه الثرى من تحته ، فبينما مصر درة بيضاء إذا هى عبرة سوداء ثم إذا هى زبرجدة خضراء ^(١) .

هذه الأرض الطيبة الطائفة ، فيها صفات من صفات العرب ، كلما أكرمها ردت إليك إكرامك شاكرة وزادت ، وكلما أهنتها غضبت عليك

(١) قيل إن عمرو بن الخطاب رضى الله عنه طلب من عمرو بن العاص وصف مصر فكتب إليه يقول :

« مصر تربة غبراء وشجرة خضراء ، طوها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ورمل أفر ، يخط وسطها نهر ميمون الندوات مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر له أوان ، تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عجز عجاجه ، وعظمت أمواجه ، لم يكن وصول بعض القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب وصغار المراكب ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ في شدته وطما في حدته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيهِ ؛ يبذرون الحب ، ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه ، فبينما هى يا أمير المؤمنين درة بيضاء إذا هى عبرة سوداء ، وإذا هى زبرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعال لما يشاء . . . »

وأخفت عنك درها ومنعت خيرها ، عنيده إذا عاندتها ، منقادة إذا أحسنت إليها ، وقد ولاك الله أمرها ، وجعل بيدك حياة أهلها ، وعهد إليك الخليفة بها ، فأصبحت في عنقك أمانة ستحاسب عايتها أمام الله ، فأحى هذه الأرض ، ومتع أهلها بها ، وستقدم إليك بيدها ما فاض عنها راضية باسمه !

هكذا حدث عمرو نفسه ، وهكذا وضع خطته ، فعنى بالإنفاق على الترع والجسور ، ووجه كثيراً من الضرائب إلى أعمال الإصلاح ، وأقام مقياساً على النيل ، يحدد الزيادة والنقص ، حتى تجبي الضرائب على أساسه ، فلا يظلم الناس في عام الانخفاض ، كما كان يفعل الرومان .

وأحس الخليفة عمر في المدينة أن خراج مصر قد نقص عما كان يجبيه منها الرومان فكتب إلى عمرو يلوّمه ويتهّمه ، لكن ابن العاص كان كبير القلب نظيف اليد ، فرد على الخليفة بقوة العربي المعتز بنفسه ومعتده ، ونبهه إلى أن الرومان القساء كانوا يمتصون دماء مصر ، حتى تركوها هزيلة لا تدر ، أما هو فقد عول أن يجعلها سمينة تدر لأهلها وللمسلمين .

رأى المصريون من المسلمين عفة وعدلاً وإيماناً ، ووجدوا في عمرو الأب الرحيم والأخ البار ، ينظر إلى الناس كما ينظر إلى أبنائه ، لا ينحاز إلى طائفة ولا يفضل جماعة ، ولا يفرق بين أبناء البلاد ليسود ، كما فعل الرومان ، ووجدوا فيه الحاكم الكفء المرن الذي يلبس لكل حال لبوسها ،

اللين في غير ضعف ، الشديد في الحق ، المثال الحسن للرجل التقى العادل
الذكي ، فدخل كثير من المصريين في دين الإسلام حباً في عمرو ودين
عمرو ، وأخذت مصر تخطو إلى الأمام يانعة مزدهرة ، ملتفة حول واليها
الذي أحبه وأخلصت إليه تقديراً وإعجاباً .

واستمر عمرو ينفخ في مصر من روحه الوثابة ، ومصر تضحك بهجة
وسروراً ، حتى قبض الخليفة عمرو بن الخطاب ، واختير بعده للخلافة
عثمان بن عفان ، فكان من حظ مصر أن يتركها منقلها وبانيها ، وأن
يأمر الخليفة الجديد بعزله عنها ، فتألم أهلها وودوا لورجع الخليفة عن رأيه ،
لكن الخليفة لم يرجع ، فخرج عمرو ، تودعه القلوب وتشيعه الأفئدة ،
وكانت آخر كلمة ودّع بها أحبابه : « اطمئنوا فسوف أعود » .

العودة

كان عمرو بن العاص يقرأ ببصيرته ما سينتهى إليه أمر الخليفة
الجديد ، فقد وجدته يسير في طريق تثير عليه الدولة الإسلامية الواسعة ،
التي آل أمرها إليه ، وصدق ما توقعه فقتل عثمان ، وتنازع الصحابة على
الخلافة ، وانحصر النزاع في زعيمين قويين ، هما علي بن أبي طالب ،
ومعاوية بن أبي سفيان ، وأخذ كل منهما يجمع حوله الأنصار ، فانقسم
العالم الإسلامي إلى فريق العراق حول علي ، وفريق الشام حول معاوية ،

ولم يكن مثل عمرو لبُسنى في مثل هذا النزاع ، ففي حيله ودهائه ،
 ما يقوم مقام الكتاب ذات العدة والعدد ، فأُسرع معاوية يضمه إليه ،
 وكان الجزاء الذى اشترطه عمرو لقاء خدماته هو مصر ، التى لا تزول من
 خاطره ، ولا تمحى صورة نيلها من قلبه .

أقدم عمرو على العمل مع معاوية - وصورة مصر تثير حماسه ،
 وتضيف إلى دهائه دهاءاً ، وإلى حيله حيلاً . فكان له الفضل في انتصار
 معاوية ، وتمهيد السبيل ليكون الخليفة الذى يحكم بلاد العراق والجزيرة
 والشام ومصر إلى برقة وطرابلس ، وأسرع عمرو عائداً إلى مصر وهو يردد
 آخر كلمة ودع بها أحبابه المصريين : « اطمئنوا فسوف أعود » .

عاد عمرو إلى مصر ، ووقعت عيناه مرة أخرى على مغانيها الجميلة
 ونيلها المتدفق ، فابتسمت شفقاته ، وترقرقت الدموع في عينيه ، قد بصره
 من خلال الغشاء الذى نسجته دموعه ليرى هذه الصورة الماثنة التى غاب
 عنها اثني عشر عاماً .

وأُسرع الناس يحيون عمرأ حبيبهم ، الذى لم ينسوه كلما أشكل عليهم
 أمر أو قسا وال من الولاة الذين خلفوه ، أو رأوا آثاره التى أعادت الحياة
 إلى مصر ، بعد أن امتص دمها الرومان ، وكانت نظراتهم ممتلئة بالاستعطاف
 والأمل لبدأ عهده السعيد .

واستجاب عمرو لهذا الأمل ، الذى قرأه في عيون مستقبله . فبدأ يزر

الوادى الحصيب ، ويحبي البلاد التى تعدل عنده بلاد الخلافة كلها .
ولم يكن النزاع بين على ومعاوية قد هدأ ، ولم يوضع حد فاصل لذلك
الخلاف الذى فرق المسلمين ، فاجتمع بعض الناس وقرروا أن يضعوا
بأيديهم نهاية لهذا النزاع بقتل على ومعاوية ^(١) .

ولم ينسوا شريك معاوية الذى كان لتدبيره الفضل فى رجحان
كفته ، وهو عمرو بن العاص ، فقرروا أن يكون الثالث ، لتزول رموس
الخلاف ، ويولى المسلمون عليهم من يختارون .

وفى ليلة واحدة كانت ثلاثة أسياف تتحرك فى جنح الظلام ، وعيون
سته تحترق حجب الليل ، فى ثلاثة أمكنة من الدولة الإسلامية ، اثنتان
منها فى العراق ، واثنتان فى الشام ، واثنتان فى مصر .

وكاد الخيط الأبيض يتبين من الخيط الأسود ، وخرج الأئمة إلى
المساجد ليصلوا الفجر بالناس ، وانحدرت السيوف الثلاثة إلى المقاتل ،
ف فاز سيف العراق برأس على بن أبى طالب ، وانحرف سيف الشام
عن مقتل معاوية ، أما سيف مصر فقد فلق هامة من الهامات .

وتجمع الناس حول القاتل والقتيل ، وأمسكوا بالقاتل ونظروا فى وجه
القتيل ، ثم علا الصياح والقاتل يمد أذنيه ليتأكد من فريسته ، وساقوه
إلى مكان يجلس فيه رجل ذو هبة وهم يصيحون :

(١) بعض من جماعة الخوارج الذين خرجوا على على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان .

- خارجة ! خارجة !

فزفر القاتل زفرة تكاد تلهب ، ثم مال على رجل ممن حوله وسأله :

- ألم أقتل عمراً ؟ !

فأجابه الرجل في سخرية :

- بل قتلت خارجة ! وعمرو هو الجالس أمامك !

فطفرت دمعة حزينة من عيني القاتل وصاح في ألم :

- أردت عمراً وأراد الله خارجة !

وكان عمرو في تلك الليلة قد شعرب بعض المرض فأناب عنه في صلاة

الفجر خارجة بن حذافة صاحب شرطته . ولم تطل اللحظات بالقاتل

حتى طار رأسه من فوق كتفيه . ومربه الناس مصابوياً على الأعواد ،

واستأنف عمرو العمل من أجل مصر .

أراد الله عمراً

جد عمرو في العمل بهمة ونشاط ، وإن كانت سنه قد أوفت على

الزمن الذي تنه فيه القوى وتضعف العزائم ، لكن القلوب الكبيرة لا تشيخ ،

لأنها تعلم أن رسالتها في الحياة قد بدنت بأجل وتنتهى بأجل ، وأن عليها

حمل هذه الرسالة حتى يحين الوقت المحتوم ، فتسلم للقدر غير جازعة

ولا وجلة .

قضى عمرو أربع سنوات دائم العمل موفور النشاط ، لكنه أحس ذات يوم بأن داعياً يدعوه إلى السفر البعيد الطويل ، وأن جسمه قد استجاب لهذا الدعاء ، فأوى إلى فراشه ، وأقبل عليه العواد وقد شغاه ما هو فيه عن الدنيا وتصريفها ، وأهمه مرضه في هذه المرة ، وقد كان لا يهتم بمرض ولا يبالى بسقم ، وأوحت نظرته الساهمة إلى العواد أنه يودع دنياه ، ويرسل ذهنه إلى كل مكان سار فيه ، وكل موقعة نارل فيها أعداءه ، وأنه يستعرض صحيفة أعماله ليتأكد من الطريق الذى سيسير فيه بعد قليل ، أهو إلى جنة أم إلى عقاب .

وانتبه عمرو من تفكيره البعيد على أصوات تسلم عليه ، وتدعوه له بالشفاء العاجل ، فوجه إليهم بصره ، ولكنه لم يتألك نفسه ، فولى وجهه إلى الحائط وانخرط في البكاء ، حتى أبكى من حوله ؛ فصاح به ابنه عبدالله :
 - ما يبكيك يا أبتاه ؟ ! أجزعاً من الموت ؟ ! أما بشرك رسول الله بالجنة ؟ !

فسح عمرو دموعه ، ولوى وجهه وقال لابنه :
 - كنت يا بنى أود أن أموت حين أسامت ، فألقى ربي نقياً خالصاً ، بعيداً عن الدنيا ، فلو مت في تلك الحال لرجوت أن أكون من أصحاب الجنة ، ولكن طال بى الأجل ، ووليت أشياء من الدنيا ، فلست أدري ما حالى فيها !
 وتعال أصوات العائدين :

— أبقاك الله يا عمرو ، حتى نتم الخير لمصر ، فإنها أحوج ما تكون إليك
ورن اسم مصر في أذن عمرو وفي قلبه ، وأثار شجونه مرة أخرى ،
فانخرط في البكاء ؛ ثم هز رأسه قائلاً :

— مصر ! أستودعكم مصر ، أستودع الله مصر !
وانهمرت دموعه ، وانبعثت الأصوات تكرر الدعاء له بالشفاء ،
لكن عمرأ كان يحس النهاية فالتفت إلى بنيه قائلاً :

— بكيت يا أبنائي لا جزعاً من الموت ، ولكن خشية من رسول الله
إذا لقيته ، أن أكون قصرت في عهده ، أو ظلمت أحداً من عباد الله ،
وقد أسلمت ، وما استطعت أن أملاً عيني منه حياء وإجلالا ، فكيف
أقابله ، فيسألني عن أمته ، وقد أكون نسيت أو أخطأت .

يا بني إذا أنا مت فلا تتبعني نائحة ، وإذا دفنتموني في قبري فصبوا
على التراب صباً ، فليس جنبي الأيمن أولى بالتراب من الأيسر ،
ولا تجعلوا في قبري خشبة ولا حجراً .

فإذا فرغتم من دفني فلا تتركوني وتسرعوا إلى الدنيا ، بل أقيموا عند
قبري قليلاً فاستأنس بكم ، حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربي .

ثم نظر إليهم ، وشرح بصره فيمن حوله وقال : أستودوني فسدوه ،
واستقبل القبلة ، ووجه وجهه إلى الله وأخذ يقول :

— اللهم إنك أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقام العائد
بك ، فإن تعف فأنت أهل للعفو ، وإن تعاقب فيما قدمت يداي .

اللهم إني لا قوى فأنتصر ، ولا برىء فأعتذر ، ولا متكبر بل مستغفر .
أستغفرك وأتوب إليك . ولكن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وأخذ الجميع ينظرون إلى عمرو وهو يودع الناس ويستقبل الآخرة ،
قوى الإدراك حاضر الذهن ، وعيونهم منهمة بالدموع ، حزناً على هذه
الصفحة الناصعة التي تطوى أمامهم وتلك الشعلة القوية التي تجو شيئاً
فشيئاً . وهم يرونها تتضاءل فلا يستطيعون أن يوقدوها مرة أخرى .

ووقفوا خاشعين أمام سلطان الموت الذي يقترب من قاب طالما فر من
الآزق الضيقة ، ولكنه الموت . إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

وأخذ صوت عمرو يخفت ، فأسرع أبنائه وأسندوه حتى نام في فراشه ،
ثم توقف اللسان اللبق ، وانطبقت العينان النافذتان ، وحمد الرأس المفكر ،
وسكن الجسم النشط ، وغطاه أبنائه ثم انصرف الجميع في حزن عميق .
مات عمرو ! ! مات عمرو !

ورددت الألسنة هذا النبأ ، وأخذ كل من في مصر يردد في لوحة :
مات عمرو ! . وليست ، صر الحداد على حبيبها المخلص ، وطار النبأ إلى
العالم الإسلامي ، فحزن الصديق ، وسر العدو ، وحمل عمرو إلى مثواه ، في
الأرض الطيبة التي ضمت أجسام العابرة والمصالحين ، في صبيحة عيد
القطر سنة ثلاث وأربعين للهجرة . بجوار المقطم ، ودخل معه أحبابه
القبر ، ثم خرجوا ، وتركوه وحيداً ، ليقابل ربه ، فيسأله عما قدمت يداه ،
وما قدمت يداه إلا خيراً للإسلام ، وأبناء الإسلام .

أشهر المراجع

- ١- تاريخ الطبرى
- ٢- تاريخ المسعودى
- ٣- تاريخ ابن الأثير
- ٤- تاريخ ابن عساكر
- ٥- سيرة ابن هشام
- ٦- السيرة الحلبية
- ٧- أسد الغابة
- ٨- كتاب الأصنام
- ٩- تاريخ الذهبى
- ١٠- معجم البلدان
- ١١- خطط المقرئى
- ١٢- تفسير الطبرى
- ١٣- صحيح البخارى
- ١٤- الأغانى
- ١٥- النجوم الزاهرة
- ١٦- فتوح مصر لابن عساكر
- ١٧- خطط الشام

١٩٩٥ / ٨٣٤١	رق الإبداع
ISBN 977-02-5035-X	الترقيم الدولى

٧ / ٩٥ / ١٠١

طبع بمطابع دار المعارف ا.ج.م.ع.١٠